بين الرشيد والبرامكة

« دراسة للصراع الخفى بين الفــرس والعرب »

دكتور / عبــد الرازق الطنطاوى القرموط

فى التاريخ الاسلامى مواقف تستغل فى تشويه صورته • وتوهين أمره ، واظهاره بمظهر لا يتناسب وقيمه وأخلاقه ومبادئه • وقد اندفع المستشرقون وأعداء الاسلام للتنقيب عن هذه المواقف وتلوينها بما يخدم مسلكهم ، ويحقق هدفهم ، ويشفى غلتهم فى الطعن على الاسلام • وكان عصر هارون الرشيد مرتعا خصبا لأفكارهم المســمومة ، وأغراضــهم الدنيئة ، فحاولوا تشويه الصورة الحقيقية الواقعية لهذا الخليفة الذى فاقت شهرته الآفاق ، وهدد بنفوذه وسطوته امبراطورياتهم ولا نريد فى هذا البحث أن نستقصى أخبار الرشيد ، فما أكثر ما كتب عنه ، ولكننــا نحاول تحديد الدراسة بما يتمشى مع العنوان •

الرشيد : « شخصيته وأخلاقه » :

يعتبر الرشيد فى نظر المؤرخين المنصــــفين من أعظم شخصيات التاريخ حتى ان عصره وسم بالعصر الذهبى للدولة العباسية ، والتى بلغت فى أيامه درجة تحسد عليها من القوةوالنهضة والتمدنبعكس سابقيه ولاحقيه • فقد كانت الدولة فى أيامه مهيبة الجــانب ، اكتملت لها ألوان من العظمة والثروة والقوة والمجد العلمى ، فاحترمتها الدول المجــاورة وهابتها • كما كان الرشيد فى الداخل أقوى من الأحــداث والفتن التى ثارت هنا وهناك ، فكان الاستقرار طابع الدولة والعظمة طابع الخليفة ،

حتى لقد عبر السيوطى بايجاز عن أيام الرشيد بأنها « كانت كلهـا أيام خير كأنها فى حسنها أعراس » (١) •

ولد أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدى بالرى من بلاد ايران سنة ١٤٥ هـ (٢) • ونشأ نشأة رائعة ، ربت فيه قوة الشخصية وسماحة النفس ، فلما شب عن الطوق ألقى به أبوه فى خضم الأحداث ، فجعله على جيش الصائفة سنة ١٦٣ هـ وعمره ثمانية عشر عاما ، كما أوفده على نفس ذلك الجيش مرة أخرى سنة ١٦٥ هـ ، فانتصر على البيزنطيين فى المرتين ، مما دل على علو كعبه ، وحسن قيادته • ثم شرع يدربه فى شئون الادارة السياسية فولاه على غربى الدولة العباسية كلها ما بين الأنبار وأطراف افريقية سنة ١٦٤ هـ • فكان الرشيد يرسل من قبله الولاة لهذه البقاع •

وأم الرشيد الخيزران ، وهى أم ولد يمانية جرشية ، وهى أم الهادى أيضا وعنها يقول الشاعر مروان بن حفصة :

يا خيزران هناك ثم هناك　　　أمسى يسوس العالمين أبناك

تولى الخلافة فى الليلة التى توفى فيها أخوه الهادى ، وهى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ (٣) •وذلك وفقا لوصية أبيه المهدي ، وكان عمره يوم ذاك خمسا وعشرين سنة •

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦ •
(٢) ذكر ابو المحاسن بن تغرى بردى سنة ١٤٦ وقيل سنة ١٤٨ هـ النجوم الزاهرة حـ ٢ ص ٦٤ •
(٣) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٢٣٠ •

فلم تغير الخلافة بمظاهرها كثيرا من أخلاق الرشـيد في أول الأمر ، بل صقلته ، وهذبت من أخلاقه ، وشحذت عزيمته ، فكان من أفاضل الخلفاء، وفصائحهم ، وعلمائهم ، وكرمائهم ، محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة • فقد كان يصلي في كل يوم مائة ركعـــة تطوعا الى أن فارق الدنيا ، الا أن تعرض له علة ، كمـا أنه لم يتخلف عن الحج الا اذا كان مشـغولا بالغزو •

فهو في كل عام بين غاز وحاج ، وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سـنى حكمـه « ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ هـ » • وكان اذا حج حج معه جمـع من الفقهاء وأبنائهم ، واذا لم يحج يحج عنه ثلاثمائة رجـل بالنفقـة السابغة ، والكسوة الباهرة ، كما أنه الخليفة الذى حج ماشيا (١) •

وبجانب ذلك فقد كان يتصـدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه ، ولم ير خليفة قبله كان أعطى للمـال منه ، وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر • كما كان يحب العلم وأله ، ويعظم حرمات الاسـلام ، ويبغض المراء في الدين ، والكلام في معارضة النص (٢) •

كما كان من أبرز صفاته : أنه ريح عاصـغة حينا ، ونسيم رخاء حينا آخر ، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله ، يثور فيزار ويضطرب، ويوعظ فيبكي وينتحب ، وكان يقرب الفكه المهزار كما يدني الفـارس المغوار وكان يسمع وعظ الواعظين •

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١٦٩ •
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ •

ومما يدل على تحكم عواطفه فيه ا أنه مرة حبس أبا العتاهية ، وجعل عليه عينا « جاسوسا أو مراقبا » يأتيه بما يقول ، فرآه يوما وقد كتب على الحائط :

أما والله ان الظلم لؤم
وما زال المسيء هو المظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى
وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى ، وأحضره واستحاله ، وأعطاه ألف دينار (١) •

دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظنى ، فقال :

يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا بين يدى الله ربك موقوف ، ثم مصروف الى احدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار ، فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال : سبحان الله ، وهل يتخالج أحدا شك فى أن أمير المؤمنين مصرو فالى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله ــ فلم يحفل بذلك ابن السماك ولم يلتفت الى قوله •

وأقبل يقول : ــ يا أمير المؤمنين ان هذا «يعنى الفضل بن الربيع» ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم • فاتق الله وانظر لنفسك • فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون ، وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف •

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٦ ص ٧٢ •

وعلى ذلك فلا زال الملوك والحكام بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ، ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك فلا يخشى سطوتهم، ولم يتأثر بقول أهل النفاق ، وما أكثرهم فى كل عصر وآن •

أما الجهاد فكان ديدنه ، اذ لم يترك الخروج مع جنده ، بل كان غالبا فى مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ، ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب • ولذلك قال الشاعر مروان بن أبى حفصة :

وسدت بهارون الثغور وأحكمت
به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه
له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية
على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر (١)

ولهذه الهمة العالية فى الغزو ، وتفقد الثغور ، والنظر فى أمر الرعية من ظلم يقع عليهم أو ضيم يلحقهم من جور العمال • لهذا النشاط مدحه أبو المعالى الكلابى ومنه :

فمن يطلب لقائك أو يرده
فبالحرمين أو أقصى الثغرو
ففى أرض العدو على طمر
وفى أرض الترفه فوق طور
وما حاز الثغور سواك خلق
من المتخلفين على الأمور (٢)

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٢٨٣ •

(٢) الخضرى بك تاريخ الامم الاسلامية حـ٣ ص ١٣٧ •

والجملة كانت الخلال الواضحة فى أعماله هى : الشجاعة ، وشدة الغضب ، ومعاقبة المسىء بلا شفقة ولا رحمة . كما كان يقود الجيش بنفسه الى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد ، وهابه العباد ، كما اشتهر عنه أنه كان يشرب النبيذ الذى يرخص أهل العراق فى شربه، كما كان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب .

وكانت له مواقف جريئة فى القضاء على الثورات التى نشبت فى أيامه سواء من العلويين « يحيى وادريس ولدى الامام محمد النفس الزكية » (١) ، أو الخوارج وعلى رأسهم الوليد بن طريف الشيبانى (٢) . أو ثورات البربر فى شمال إفريقية (٣) أو فى خراسان (٤) ، أو مع الأمويين بالأندلس ، أو دولة الروم الشرقية .

أسرة البرامكة :

تنسب هذه الأسرة الى برمك ، وهو لقب سادن معبد النار فى النوبهار احدى صوامع المجوسية بمدينة بلخ ، وهو البيت الرابع من البيوت المعظمة ، قيل بناه منو جوهر بمدينة بلخ على اسم القمر ، وكان من يلى سدانته تعظمه الملوك فى ذلك الصقع ، وتنقاد الى أمره ، وترجع الى حكمه ، وتحمل اليه الأموال ، وكانت عليه الوقوف ، وكان الموكل بسدانته يدعى البرموك : وهو اسم عام لكل سدنته .

قال المسعودي : ومن أجل ذلك سميت البرامكة .

---

(١) راجع ابن كثير : البداية جـ ١٠ ص ١٦٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٦ ص ٩٧ .
(٣) د/ ابراهيم شعوط : الدولة العباسية ص ٣٩ .
(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٨٧ .

خالد بن برمك :

وكان برمك هذا عالما أديبا متبحرا فى علوم الفرس وثقافات الأمم ، وقد دخل وأسرته الاسلام بعد فتح قتيبه بن مسلم لخراسان نحو سنة ٨٥ هـ ، واحتفظوا بنفوذهم ومكانتهم ، وقد اتصل برمك بالخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فسر به لما عنده من علوم وخبرات، لذلك استبقاه لديه الى أن مات تاركا غلاما اسمه خالد بن برمك الذى لمع فى صدر الدولة العباسية • فقد اتصل خالد هذا بدعاة الدعوة العباسية فى خراسان خاصة أبى مسلم الخراسانى ، وكان فى جيش قحطبة بن شبيب الطائى المتوجه من مدينة مرو للزحف غربا نحو عاصمة الأمويين • وكان خالد يتولى خراج ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ، فكان يقال : ما من أحد من أهل خراسان الا ولخالد عليه يد ومنة ، لأنه قسط الخراج فأحسن فيه الى أهله •

وكان خالد مع قحطبه على سطح من سطوح منازل القرية التى بها عسكرهم ، فرأى خالد قطعان الوحش تقبل نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أتينا فمر من ينادى بالسلاح، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامى ومر بالنداء ، ففعل • وما هى الا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى بقيادة ابن ضبارة ودارت رحى معركة أسفرت عن هزيمة الأمويين ، وقتل قائدهم • وسئل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين ؟ فأجاب رأيت الوحش بنفر نحونا فعلمت أن شيئا عظيما أخافه وأذعره • ولما قتل ابن ضبارة أخطأ قحطبة فأرسل رأسا غير رأسه الى أبى مسلم ، ثم عرف رأس ابن ضبارة فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك ، وقال : أن فعلت ذلك أبطلت الأول والثانى (١) •

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٧ ـ ٨٨ •

ولمـــا عقدت البيعة لأبى العباس السفاح فى مسجد الكوفة ســـنة ١٣٢ هـ ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، سأله أبو العباس : من الرجل ؟ فقال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال : أنا كمـــا قال الكميت بن زيد :

وما لى الا آل أحمد شـــيعة   وما لى الا مذهب الحق مذهب

وأعجب السفاح بفصاحته وذكائه ، وأقره عـــلى ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج ، وديوان الجند ، وكثر فيه حامده ، وحسن أثره ، وكان ســـبيل ما يثبت فى الدواوين أن يثبت فى صحف ، فكان اخلد لذلك أول جعله فى دفاتر (١) •

ولمـــا قتل أبو سلمة الخلال ، وهو أول وزير فى الدولة العباسية، أصبح خالد بن برمك ، يقوم بعمل الوزير للسفاح ولايسمى وزيرا تطيرا مما جرى لأبى سلمة ، وقد بقى حتى وفاة الخليفة السفاح ، ثم أقـــره أبو جعفر المنصور على ما هو عليه ، فبقى سنة وشهورا ، ثم ولى مكانه أبا أيوب الموريانى •

ويرجع السبب فى ذلك لا الى قصور تصرف خالد ، وانما لغلبـــة سليمان الموريانى « أبو أيوب » على المنصور ، فاحتال على خالد بأن ذكر للخليفة تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لا يمكنه أمرها سوى خالد ، فندبه اليها ، فلما بعد خالد عن الحضرة أصبح أبو أيوب وزيدا (٢) • حتى لقد قالت العامة أنه سحر أبا جعفر (٣) •

---

(١) الجهشيارى : المرجع السابق ص ٨٩ •
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ١ ص ١٠٦ •
(٣) د : محمد المنياوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص

ولما تم لخالد القضاء على هذه الفتنة ، قام بتدبير الأمر بفارس مدة ، ثم انكسرت عليه جملة من المال ، فحمل الى بغداد وطولب بالمال. فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٥٨ هـ أن أبا جعفر ألزمه « ثلاثه آلاف ألف ونذر دمه فيها ، وأجله ثلاثة أيام بها » . ولم يذكر سبب ذلك ، فاستعان فى ذلك بأصدقائه فأعانه كثيرون منهم عمارة بن حمزة ، وصالح صاحب المصلى ، ومبارك التركى ، حتى استطاع جمع ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم فى يومين ، وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور الموصل لانتقاض أهلها، وانتشار الأكراد بها ، واستطاع خالد القضاء على التمرد ، والبقاء فى ولاية الموصل الى أن توفى المنصور . فكان ممدوح الولاية حسن السيرة. «قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى : ما هبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ، ولا نرى منه جبرية ، ولكن هيبة كانت له فى صدورنا » (١) .

وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ هـ فى أول خلافة المهدى ، ولكنه قام بعمل جليل فى المرة الأولى التى خرج غياه الرشيد لغزو الروم ، فقد كان « مثل الوزير له » . حيث فتح الله عليهم فتوحات كثيرة ، وغنموا أموالا جزيلة جدا ، وكان لخالد بن برمك فى ذلك أثر جميل لم يكن يضره . وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك الى المهدى فأكرمه وأجزل عطاءه » (٢) .

قال الجاحظ : وحدثنى ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون : « لم يكن يرى لجليس خالد دار الا وخالد بناها له ، ولا ضيعة الا وخالد ابتاعها

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٥٤ ، ٥٦ بتصرف .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ١٤٦ .

له ، ولا ولد الا وخالد ابتاع أمه ان كانت أمة ، أو أدى مهرها ان كانت حرة ، ولا دابة الا وخالد جعله عليها » (١) •

ويقول المسعودى : « لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه ، وجميع خلاله ، لا يحيى فى رأيه ، ولا الفضل بن يحيى فى جوده ، ولا جعفر فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد فى رأيه وهمته ، ولا موسى فى شجاعته (٢) •

يحيى بن خالد :

كان يحيى بن خالد واحد الدنيا علما وأدبا وفضلا ونبلا وجـودا رباه أبوه فأحسن تربيته • وكان مولده سنة ١٢٥ هـ ، فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة ، فتربى فى كنف الدولة ، وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده (٣) •

وفى سنة ١٥٨ هـ اختاره المنصور لولاية اذربيجان ، وقال له : أردتك لأمر مهم من الأمور ، واخترك لثغر من الثغور ، وكانوا لا يولون ثغورهم الا من كانت ثقتهم به عظيمة ، فسار فى ولايته سيرة أبيه فى الموصل « لم يزل على أذربيجان الى أن توفى المنصور » (٤) • وقد كان الخليفة معجبا بيحيى فقد ذكر الطبرى أنه قال : ولد الناس ابنا وولد خالد أبا •

وفى سنة ١٦٣ هـ اختاره المهـدى ليكون كاتبا واليه النفقات فى الجيش المتوجه الى بلاد الروم •

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥ •
(٢) مروج الذهب حـ٣ ص ٣٧٧ •
(٣) انظر تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٥٤ ، ٥٥ •
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ ٦ ص ١٦

وكان معـــه فى تلك الغـــزوة الربيع بن يونس الحاجب غازيا عن المهدى ، فكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك ، وكان هارون يشاورهما ، ويعمل برأيهما •

ولما ندب المهدى يحيى لذلك المهمّ قال له : انى قد تصفحت أنباء شيعتى وأهل دولتى • واخترت منهم رجلا لهارون ابنى أضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خبرتى له ، ورأيتك أولى به اذ كنت مربيه وخاصته ، وقد وليتك كتابته وأمر عسكره ، ثم أمـــر له بمائة ألف درهم معونة على السفر (١) •

ولمـــا ولى الخليفة المهدى هارون ابنه على بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية ، جعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك (٢) فـــكان يدبر أمره ، وهارون لا يناديه الا بيا أبى ، وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضـــــل ، وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون •

محـــاولة ودفاع :

ولما مات المهدى سنة ١٦٩ هـ ، ولى الهادى الخلافة ، وكان مقيما بجرجان ، ويرجع الفضل فى ذلك الى يحيى ، كما يذكر المؤرخون (٣) • فقد هم بعض رجاء الدولة ومنهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشـــيد عليه والمبايعة له ، لكونه حاضرا ببغـــداد وعزموا على

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ •
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٤٦ •
(٣) راجع تاريخ الطبرى حـ ٨ ص١٨٧ ، الكامل فى التاريخ حـ٦ ص٨٨

النفقه على الجند لذلك (١) • ولكن آسرع الهادى الى بغداد حيث تولى الخلافه ، فابقى يحيى على حاله مع هارون ، فمما حطر بباله ان يخلع آخاه ـــ الرشيد ـــ من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى لأنه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحـــه اياه أبوه المهـــدى • وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع لما لاقاه من تضييق أخيه عليه حتى انه امر « آلا يسار قدام الرشيد بحربة ، فاجتنبه الناس وتركوه ، فلم يكن آحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه • وكان يحيى بن خالد يقـــوم بانزال الرشيد ولا يفارقه هو وولده (٢) ولذلك قال يحيى لا تترك هذا الأمر • فقال : أليس يترك لى الهنيء والمرىء فهما يسعاننى وأعيش مع ابنة عمى ، فلم يوافق يحيى قائلا وأين هذا من الخلافة ، ولعلك ألا تترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ، ومنعه من الاجابة فسعى الواشـــون بذلك الى الخليفة الهادى الذى آرسل اليه على عجل ، وسأله : لـــم تدخل بينى وبين أخى وتفســـده على ؟ فرد يحيى بقوله : ومن أنـــا يا أمير المؤمنين حتى أدخل بينكما ، وانما صيرنى المهـــدى معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى بذلك فانتبهت الى أمرك • ثم استدرجه فى الحـــديث حتى كلمه فى أمـــر الخلع فكان رد يحيى : يا أمـــير المؤمنين : « انك ان حملت الناس على نكث الايمـــان هانت عليهـــم أيمانهم ، وان تركتهم على بيعـــة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته » • فقال الهادى : صـــدقت ونصـــحت ولى فى هذا تدبير •

ومما قاله فى هذا : « يا أمير المؤمنين : أرأيت ان كان الأمر ـــ أسأل الله ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله ـــ أتظن ان الناس يسلمون الخلافة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٥٧ •

(٢) تاريخ :الطبرى حـ٨ ص ٢٠٧ •

لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ قال : والله ماأظن ذلك . قال : يا أمير المؤمنين : أفتأمن أن يسموا لها أهلك وجعلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نبهتني يا يحيى . وقال له . ما كلمت أحدا من الخلفاء كان أعقل من موسى . وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له ، فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدى له !

ولكن أرى أن نقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فاذا بلغ جعفر ، وبلغ الله به ، أتيته بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من بايعه ويعطيه صفقة يده . فقبل الهادى قوله ورأيه » (١) .

ولكن يظهر ان الذى كان يحرك الهادى لخلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته ، فاشتد غضبه منه وضيق عليه ، فقال يحيى لهارون ، « أستأذن فى الخروج الى الصيد ، فاذا خرجت فاستبعد ، ودافع الأيام ، ففعل هارون وخرج الى قصر مقاتل فأقام به أربعين يوما حتى أنكر الهادى أمره ، وغمه احتباسه ، وجعل يكتب اليه ويصرفه ، فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر ، وأظهر شتمه ، وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه . وكان الذى ينوب عن الرشيد ويحيى بالباب : الفضل بن يحيى ، فكان يكتب الى أبيه بكل ما يحدث » (٢) .

---

(١) راجع : الكامل فى التاريخ حـ٦ ص ٩٦ ، ٩٧ ، نهاية الأرب للنويرى حـ٢٢ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٢١٠ .

توفيق وتفويض وتحقيق :

ولما لم ير الهادى يحيى بن خالد راجعا عما كان عليه لهارون — بما بذل له من اكرام واقطاع وصلة — بعث اليه يتهدده بالقتل ان لم يكف عن ذلك . ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها ، فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ، ودبره أحسن تدبير . فلما تقلد الرشيد الخلافه ، وأبقى العمال على ولاياتهم دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى اليك فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، وأعزل من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شىء ، ودفع اليه خاتمه (١) . وهذا ما يعرف بوزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ معا .

وفى ذلك يقول ابراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة
فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى
فهارون واليها ويحيى وزيرها (٢)

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٣٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٦٠ ، الجهشيارى : الوزراء .

(٢) الكامل فى التاريخ حـ٦ ص ١٠٨ ، مروج الذهب حـ٣ ص ٢٤٨ . والكتاب ص ١٧٧ .

فأعطاه الخليفة مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفا (١).

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الامور ، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها . وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق ، وسماحة النفس ، وجودة الكتابة وبلاغة الأسلوب غرة فى دولة الرشيد، فنهض بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الاموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة . حيث كان لبيبا سديدا ، صائب الرأى ، حسن التدبير ،ضابطا لما تحت يده قويا على الامور جوادا يبارى الريح كرما وجودا ، ممدحا بكل لسان ، حليما عفيفا ، وقورا مهيبا . وفيه يقول القائل :

لا ترانى مصافحا كف يحيى
إننى ان فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى
لسخت نفسه ببذل النوال (٢)

ومن أهم الأعمال التى قام بها يحيى ، أنه « شق نهرا كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت بسببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر باجراء القمح على الحرمين ، وتقدم بحمله من مصر اليهم ، وأجرى الأرزاق على المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين والآداب ، واتخذ كتاتيب لليتامى » (٣) .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٩٤ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٧٣ — ١٧٤ ، تاريخ الطبرى ٨، ص ٢٠٩ .
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٧٧ .

ومن ناحية ثانية أشار على الرشيد لما رام توصيل بحر الروم وبحر القلزم (الأحمر) مما يلى الفرما ، بألا يفعل ذلك قائلا : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام ، وتدخل مراكبهم الى الحجاز » فتركه (١) •

أبناء يحيى ودورهم :

لم يكن يحيى صاحب الأمر فى دولة الرشيد لدرجة انه سنة ١٧٨هـ فوض اليه كل أموره وفقط ، بل كان له أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب ، وعباقرة أمجاد ، كانوا من أشهر الأمراء والقواد ، الذين ساعدوا أباهم فى تدبير الأمور ، وتسيير دفة الحكم ، وارساء قواعد الدولة العباسية سياسيا واقتصاديا وتعاونيا • وهم الفضل ، وجعفر ومحمد وموسى • وفهيم يقول أبو الغول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم
أربعة سيد ومتبوع
الخير فيهم اذا سألت بهم
مفرق فيهم ومجموع (٢)

لقد كان هؤلاء الأربعة كعبة الآمال ، وتشد اليهم الرحال ، ويقف على أبوابهم أصحاب الحاجات • يقول ابن طبا طبا عنهم :

« اعلم ان هذه الدولة كانت غرة فى جبهة الدهر ، وتاجا على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الامثال ، وشدت اليها الرحال ،

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٨٦ •
(٢) المسعودى : مروج الذهب حـ٣ ص ٣٧٧ •

ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافقة ، والغيوث ماطرة : أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد . ولهم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم
بنى برمك من رائحين وغاد (١)

الفضل بن يحيى

لقد كان الفضل أكبر أولاد يحيى ، من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ينوب عنه فى جلائل أعماله . وقد ولد فى أواخر سنة ١٤٨ هـ ، قبل ولادة الرشيد بسبعة أيام . وقد أرضعته الخيزران ، كما أرضعت الرشيد زبيدة بنت منير ، وفى ذلك يقول مروان ابن حفصة :

كفى لك فخرا أن أكرم حرة
غذتك بثدى والخليفة واحد
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها
كما زان يحيى خالدا فى المشاهد(٢)

---

(١) الفخرى ص ١٧٨ ـ ١٧٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ ، الفخرى ص ١٧٧ ، البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٠ .

وكان الرشيد يثق فيه ويجله ، ومن أجل ذلك لما ولد محمد الأمين جعله فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته ، وأسكنه معه فى قصره المعروف بالخلد ، وضم اليه أعماله ودواوينه (١) .

فكان له أبا . وكان الرشيد فى أول الامر يمنحه خاتمه ، ثم رأى أن ينقل الخاتم الى جعفر ، اذ كان الفضل متزمتا لا يشرب النبيذ ، ولا يميل الى المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى : « انى احتشمت أن أكتب لاخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فاكفنيه ، فكتب يحيى الى الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك الى شمالك ، فكتب اليه الفضل ، قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وأطعت . وما انتقلت عنى نعمة صارت لليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه » (٢) .

وفى سنة ١٧٦ هـ ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بالديلم ، واشتدت شوكته ، وكثر جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، فاغتم الرشيد لذلك ، واختار له أوثق الناس عنده ، وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الري وجرجان وطبرستان وغيرها ، وأرسل معه خمسين ألفا لذلك ، وحمل معه الأموال . وكان من تصرف الفضل ، أنه وزع الكور على قواده ، كما حاول أن يجرب طريق السلم ، باستمالة يحيى ، فأرسل اليه فى ذلك ، ورفق به ، واستماله ، وناشده وحذره ، وأشار عليه ، وبسط أمله (٣) . وهو يقيم بطالقان وواتر كتبه الى يحيى حتى

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون حـ٢ ص ٤٠٨ ــ ٤٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حـ٦ ص ١٢٥ .

استماله فعلا ، بدهائه وذكائه ، واستطاع أن يستنزله من حصونه ، على شريطة أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه . وقد كان ولما عاد به الى الرشيد أكرمه ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له أرزاقا سنيه ، وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياما ، وكان يتولى أمره بنفسه ، ولا يكل ذلك الي غيره ، وأمر الناس باتيانه والتسليم عليه . وبلغ الرشيد الغاية في اكرام الفضل . وقد مدحه شعراء العصر وكان مما قاله مروان بن حفصة :

ظفرت فلا شلت يدبر مكية
رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه
فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطه
من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزا
لكم كلما ضمت قداح المساهم (١) .

وقال أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبله
يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا
في غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم
بعد الشتات فشعبها متدان

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ١٦٧ .

عصمت حكومته جملة هاشم

من أن يجرة بينها ستيفلن

تلك الحكومة لا التى عن لبتهما

عظم الفتنة وتفرق الكلمان (١)

ومن ناحية أخرى ، قلده الرشيد المشرق كله ، من النهر وان الى أقصى بلاد الترك ، فشخص الى خراسان سنة ١٧٨ هـ فأحسن السيرة بها ، وبنى بها الرباطات والمساجد ، وغزا ما وراء النهر ، فخرج اليه ملك أشروسنه ، وكان ممتنعا (٢) ٠

ويقال انه اتخذ بخراسان جندا من العجم ، يسماهم العباسية ، وجعل ولاءهم له وان عدتهم بلغت ٥٠٠,٠٠٠ رجل ، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرمينيه ، وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم (٣) ٠

وفى ذلك يقول مروان بن حفصة من قصيدة طويلة :

ما الفضل الا شهاب لا أفول له
عند الحروب اذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم عز سهمهم
من الوراثة فى أيديهم سبب

ان الجواد بن يحيى الفضل لا ورق
يبقى على جود كفيه ولا ذهب

(١) تاريخ الطبرى حـ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ٠

(٢) الكامل فى التاريخ حـ٦ ص ١٤٥ ٠

(٣) البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٧٢ ٠

ما مر يوم له مذ شد مئزره
الا تمول أقوام بما يهب

كم غاية فى الندى والبأس أحرزها
للطالبين مداها دونها تعب

فضل عرفك حتى ما يعاد له
غيث مغيث ولا بحر له حدب (١)

وبعد أن وطد أمور الشرق عاد الفضل سنة ١٧٩ هـ ، الى بغداد ، فخرج الرشيد الى بستان أبى جعفر يستقبله ، وتلقاه بنوها والناس من القواد والكتاب والأشراف ، فوصلهم وأحسن جوائزهم (٢) •

وكان الفضل فى جميع الأعمال التى اسندت اليه كفؤا نزيها ، كما كان من أكثر البرامكة كرما ، وما أكثر ما قيل فيه مدحا •

ومما قاله سلم الخاسر :

وكيف تخاف من بؤس بدار
تكنفها البرامكة البحور

وقوم منهم الفضل بن يحيى
نفير ما يوازيه نفير

له يومان يوم ندى وبأس
كأن الدهر بينهما أسير

اذا ما البرمكى غدا ابن عشر
فهمته وزير أو أمير (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٥٧ •
(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ •
(٣) البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٧٢ •

وقال عنه مروان بن حفصه قبل خروجه الى خراسان ، وهو في معسكره :

ألم تر أن الجود من لدن آدم
تحدد حتى صار في راحة الفضل
اذا ما أبو العباس راحت سماؤه
فيالك من هطل ويالك من ويل
اذا أم طفل راعها جوع طفلها
دعته باسم الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الاسلام انك عزه
وانك من قوم صغيرهم كهل (١)

ولقد بلغ كرمه الغاية ، التى جعلت الألسنة تثنى عليه ، وتنسابه الكلمات مشيدة بفضله حتى أن بعضهم قال :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى
ترك الناس كلهم شعراء
علم المفحمين أن ينطقوا الشعـ
ـر وصينا والبلخلين السخاء (٢)

وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لك الفضل يا فضل بن يحيى بن خالد
وما كل من يدعى لفضل له فضل

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٥٨ .
(٢) الجهشيارى : ص ١٩٥ .

رأى الله فضلا منك فى الناس واسعا
فسماك فضلا فالتقى الاسم والفضل (١)

وقال فيه أبو قابوس الحبرى :

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد
ففضله والله بالنــــاس أعــــلم
له يوم بؤس فيــه للنس أبؤس
ويوم نعيم فيه للنـــــاس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الغنى
ويمطر يوم البؤس من كفه الدم (٢)

وإذا كان للفضل سخيا باذلا معطاء ، لدرجة جمعت حوله القلوب والعقول ، وانطلقت الألسنة وتبارى الشعراء فى مدحــه ، وما ذكرناه مجرد نماذج فقط ، ذكر المؤرخون أنه أعطى كثيرا للمســتقبلين له كما سبق ذكره « فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفذ فى ذلك اليوم من الأموال شيئا كثيرا لا يمكن حصره الا بتعب وكلفة » .

وقد دخل عليــــه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه ، وهى تفرق على الناس فقال : « قيل هو حفص بن مسلم » .

كفى الله بالفضل بن يحيى وجود يديه بخــل كل بخيل

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص ٢١١ .
(٢) الجهشيارى : ص١٩٠ .

فأمر له بمال جزيل (١) •

وكان الفضل كما سبق القول لا يشرب النبيذ مع شيوعه ، وكثرة شاربيه فى ذلك الحين • ولما سئل عن سبب ذلك قال : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته أبدا (٢) • كما كان أكرم من أخيه جعفر ، حتى كان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير ، واستمر محمود السيرة ، مرفوع الرأس فى المهمات حتى كانت النكبة التى قضت عليهم كما سنرى •

جعفر بن يحيى

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحيى ، وكان من علو القدر ، ونفاذ الأمر ، وبعد الهمة ، وعظم المحل ، وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها • وكان الرشيد ذكيا فطنا ، سمح الأخلاق ، طلق الوجه ، ظاهر البشر ، كريما حليما ، كان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاقه ، وجه أخيه الفضل الذى عليه ، لذلك نقل الخاتم له كما سبق ذكره • ولذلك كان تعليق جعفر : لله در أخى ، ما أكيس نفسه ، وأظهر دلائل الفضل عليه ، وأقوى منة العقل عنده ، وأوسع فى البلاغة ذرعه •

فصار جعفر متمكنا عند الرشيد ، غالبا على أمره ، وبلغ من علو المرتبة ، وعظيم الشأن عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى ليقال ان الرشيد

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٠ ص ١٦١ ص ١٧٣ •

(٢) الجهشيارى : الوزراء ص ١٩٤ •

اتخذ ثوبا قصفاضا ، كان يدخله هو وجعفر جميعا بملابسهما ، وقلده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب والطراز فى جميع الكور (١) .

كما كان الخليفة يؤثر جعفر على أخيه الفضل لعلو منزلته عنده ومحبته اياه ، لذلك استغرب من اطلاق الناس اسم الوزير الصغير على الفضل لا جعفر ، فسأل يحيى والدهما يوما قائلا :

« يا أبى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك » ؟

فقال يحيى : لأن الفضل يخلفنى . قال : فضم الى جعفرا عمالا كأعمال الفضل ، فقال يحيى : ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك ، فجعل الرشيد اليه أمر داره فسمى بالوزير الصغير أيضا .

والمتطلع الى الفضل وجعفرا بنى يحيى ، يجد أنهما تقاسما حياة الرشيد ومملكته ، وردت اليهما جميع الأمور فيها ، فبينما كان المشرق كله للفضل ، كان المغرب من الأنبار الى أفريقية الى جعفر . ففى سنة ١٧٦ هـ قلده ولاية مصر وتوابعها . فأقام هو مع الرشيد وأناب عنه عمران بن مهران (٢) .

أما جود جعفر وسخاؤه وبذله وعطاؤه ، فكان أشهر من أن يذكر، وأبين من أن يظهر . وقد ذكر الخطيب البغدادى نماذج عديدة لذلك(٣).

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ١ ص ١٠٧ ، الجهشيارى : ص٢٠٤

(٢) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٥٢ .

(٣) تاريخ بغداد مجلد ٧ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

وكان جعفر مع ذلك كاتبا بليغا ، فكانت توقيعاته فى الديوان تنسخ وتدرس ، فقد ذكر الجهشيارى أنه وقع على ألف قصة ونيف من المظالم عرضت على العمال والقضاة والكتاب ، وكتاب الدواوين ، فما وجد منها شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق • كما كان أنطق الناس قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وقد وصفته عنان جارية الناطفى بقومها :

بديهته وفكرته سواء
أذا التبست على الناس الأمور
وأحزم ما يكون الدهر رأيا
اذا عجز المشاور والمشير (١)

وفى سنة ١٨٠ هـ ثارت العصبية بالشام بين أهلها ، وتفاقم خطرها ، واشتد أمرها ، فاغتم الرشيد لذلك ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له : « اما أن تخرج أنت أو أخرج أنا • فقال جعفر ، بل أقيك بنفسى ، فشخص فى جملة من القواد والكراع والسلاح ، فأصلح بين الناس ، وقتل زواقيلهم « لصوصهم » والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رمحا ولا فرسا ، فعادوا الى الأمن واالطمأنينة ، واطفأت تلك الثائرة » •

وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النمرى :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنه
فهذا أوان الشام تخمد نارها

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ •

اذا جاش موج البحر من آل برمك
عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر
وفيه تلاف صدعها وانجبارها
وماها بميمون النقيبة ماجد
تراضى به قحطانها ونزارها (١)
هو الملك المأمول للبر والتقى
وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه
وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه
فعندك مأواها وأنت قرارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد
أخو الجود والنعم الكبار صغارها
كأين ترى فى البرمكيين من ندى
ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله
اليك وعزت عصبة أنتجارها (٢)

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له اكراما ، وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام ، واستعطف قلب الرشيد عليهم (٣) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٧٥ .
(٢) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٦٣
(٣) الخطبة بتمامها فى تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

وفى هذه السنة أيضا ، أخذ الرشيد منه الخاتم ، ودفعه الى أبيه يحيى بن خالد . ثم ولى جعفر خراسان وسجستان ، فاستعمل عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة . ولكنه لم يستمر فى هذه المهمة فترة طويلة، فقد عزله الرشيد بعد عشرين يوما عنها ، وجعله على الحرس . وكان يخلفه عليه هرثمة بن أعين (١) .

ولم تكن هذه المنزلة من فراغ ، وانما أعده لها أبوه اعدادا خاصا فأدبه وعلمه ، واختار له من نوابغ العصر من قاموا على هذا ، ويكفى أنه أخذ الفقه والعلم على القاضى أبى يوسف ، مما كان له أثره الكبير على حياته العملية . فيروى انه وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ونظر فيها جميعها ، فلم يخرج شىء منها عن موجب الفقه . وقد زعم الجاحظ أن تمامة بن أشرس النميرى قال :

« ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون » (٢) . ولذلك يذكرون أن رجلا اعتذر اليه فقال له « قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار الينا ، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك » .

ولقد كان لجعفر مكانة غالية عند الرشيد ، ومنزلة سامية ، ومركز مؤثر فى الدولة ، وذلك أن جعفر جلس يوما للشرب ، وأحب الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم . وقد هيىء المجلس . ولبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، وأمر جعفر الحاجب بألا يأذن لأحد بالدخول عليه سوى رجل من الندماء يدعى « عبد الملك بن صالح »

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، الكامل فى التاريخ حـ ٦ ص ١٥٢ .

(٢) تاريخ بغداد مجلد ٧ ص١٥٢ .

وانشغلوا بما عزموا عليه ، وبعد فترة فوجئوا بعبد الملك بن صالح،ولكنه ليس المقصود ، فقد كان للخليفة قريب بهذا الاسم ، وهو الذى حضر ، ولم يكن به رغبة لما يفعلونه ، فقد كان رجلا ذا خلق جم شديد الوقار والدين والحلم ، حتى أن الرشيد التمس منه المنادمة ، وبذل الأموال الجليلة فى ذلك فلم يقبل ، مما أوجده عليه . لذلك لما دخل هذا على جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، ففطن أن الأمر التبس على الحاجب، وأدرك عبد الملك الحرج الذى وقع فيه جعفر وصحبه ، فجاراهم ، حتى وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال : قد ولاه مصر ، فانصرف المؤمنين ففى قلبه سخط على ، فأجابه جعفر برضى الخليفة عليه فطلب منه أربعة آلاف ألف درهم فقال جعفر : انها لعتدى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فانه أنبل لك . وأحب اليك . ثم استمر عبد الملك فى الطلب قائلا : وابراهيم ابنى أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ، قال جعفر : قد زوجه أمير المؤمنين العالية ابنته . فزاده وأحب أن يحقق لواء على رأسه ، قال : قد ولاه مصر ، فانصرف عبد الملك على هذه الأمانى ، فلما كان الغد دخل جعفر على الرشيد فأخبره بما حدث ، فلم يرد الا بهذه العبارة أحسن والله أحسنت (١) .

وانما فعل جعفر ما فعل لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد ، ولذلك كتب لعبد الملك تقليدا بولاية مصر ، وعقد عقده على ابنة الرشيد .

ولم تكن الثقة بالنفس وفقط ، بل الثقة فى الرشيد ، والتأثير عليه، وشدة الألفة بينهما ، حتى كان جعفر أقرب الى نفسه من غيره لأنه كان

---

(١) راجعها بالتفصيل فى الوزراء والكتاب ص ٢١٢ ـ ٢١٤ ، الفخرى ص ١٨١ ـ ١٨٢ ، وفيات الأعيان حـ١ ص ١٠٦ وغيرها .

سليما يعرف الجد واللهو ولذلك وجدنا ابن مناذر يصف الألفـــة بينهما « الرشيد وجعفر » بقوله :

قد تقطع الرحـــم القريب وتكفر النشـــعمى ولا كتقـــارب القلبين
يدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى فاذا هما نفس ترى نفسين (١)

ولذلك كان عبد الله المـــأمون بن الرشيد فى حجر جعفر ، بناء على رغبة الخليفة ، فاهتم جعفر كل الاهتمام ، أشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد • وقام بالإمر حتى عقده له ، وأخذ الأيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به الى العمال (٢) فى الوقت الذى كان فيه محمـــد الأمين فى حجر الفضل أخيه •

واذا كان الشعر لسان الحال كما يقولون فى ذلك العصر ، ففى شعر الشعراء ما يوضـــح لنا مكانة جعفر ومنزلته ، ونكتفى ببعض النماذج فقط ، فقد أنشد أشجع السلمى :

يجب الملوك ندى جعفـــر
ولا يصـــنعون كما يصنع
وليس بأوســعهم فى الغنى
ولـــكن معـــروفه أوســـع
وكيف ينـــالون غـــاياته
وهم يجمعون ولا يجمـــع

أرأيت كيف وصل به الشعر ،وكيـف ارتقى على الملوك ، وهل بعد ذلك مدح ؟

---

(١) احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج٣ ص ٢٩٢ •
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١١ •

وقال الأصمعى :

اذا قيل من للندى والعلى
من الناس ؟ قيل الفتى جعفر
وما ان مدحت فتى قبله
ولكن بنو برمك جوهر (١)

ونختم الكلام عن جعفر ، وعن شدة صلته بالرشيد ، حتى أنه أصبح يدخل فى كل أمر من أموره ، بأن هذا التطور جعل يحيى يتخوف من نتيجته على ولده جعفر ، فقال الرشيد : يا أمير المؤمنين انى أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب الى ، وآمن عليه عندى ، فطمأنه الرشيد ، وقال له : لا عليك يا أبت (٢) ولكن ذلك لم يحدث .

موسى بن يحيى ومحمد :

لقد كان موسى أشد أبناء يحيى البرمكى بأسا ، كما كان كاملا سريا وقائدا محنكا ، ولاه الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ ، بعد أن هاجت العصبية بين النزارية واليمانية ، وضم الى موسى من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة ، فأصلح بين أهلها ، وسكنت الفتنة ، واستقام أمرها . فانتهى الخبر الى الرشيد بمدينة السلام ، ورد الرشيد الحكم فيهم الى يحيى ، فعفا عنهم ، وعما كان بينهم ، وأقدمهم بغداد .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥ ، ٢٠٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

وعن موسى قال الشاعر :

قـــد هاجت الشـــام هيجا
يشـــيب رأس وليـــده
فصــب مــوسى عليهـــا
بخيـــله وجنـــوده
فـــدانت الشـــام لمـــا
انى نســـيج وحيـــده
هـــو الجـــواد الذى بـــ
ـــذ كل جـــود بجـــوده
أعـــداه جـــود أبيـــه
يحيى وجـــود جـــدوده
ونال موسى ذرى المجـــ
ـــد وهو حشو مهوده (١)

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد، بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه ، وأعلمه طاعة أهلها لموسى ، ومحبتهم اياه ، وأنه يكاتبهم ، ويعمل على الانســـلال اليهم للوثوب به معهم ، فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه ، وأوحشه منه ، فلما قدح على ابن عيسى فيه أثر ذلك فى الرشيد ، وعمل فيه القليـــل منه ، ثم ركب موسى دين ، واختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه صار الى خراسان كما قيل له ، فلما صار الى الحيرة فى ذى الحجة سنة ١٨٧هـ ، وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عنـــد العباس بن عيسى بن موسى ٠

---

(١) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، البداية والنهـاية حـ١٠ ص ١٦٨ ٠

فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ، ولم يكن الرشيد يردها فى شىء . فطلب ضمان أبيه له ، فضمنه يحيى ودفعه اليه ، ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه .

أما محمد فقد كان سريا بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما لأخوته . وقد تولى حجابة الرشيد سنة ١٧٢ هـ (١) . وعن الأربعة نجد وصف ابراهيم الموصلى الموضح بايجاز لشخصية كل واحد نهم .

« أما الفضل فيرضيك بفضله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل ما لا يجد » (٢) .

وكان ليحيى ابن خامس يدعى «ابراهيم» مات وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور فى ادارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيى أحضر يوما المؤدبين والمشرفين الذين ضم اليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال ابراهيم ؟ قالوا : بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، واتخذنا له من الضياع كذا . قال : ما عن هذا سألت . هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مننا ؟ فسكتوا . فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو الى هذا أحوج وأمر بحمل ٥٠٠،٠٠٠ درهم ، وتفريقها باسمه فى الناس(٣).

وبعد ...

فهذه هى أسرة البرامكة التى خدمت الدولة العباسية منذ أول نشأتها وحتى سنة ١٨٧ هـ كانوا كواكب الدولة وسادة العصر غير منازعين غرة فى جبينها ، جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٨٧ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

معاصريهم من الكتاب والشعراء والقضاء ، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام ، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح ، فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين .

ولذلك تذكر قول الشاعر :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا
ولكنى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة
توارثنى من والد بعد والد (١)

وقال مخر :

ويفرح بالمولود آل برمك   بغاة الندى والسيف والرمح والنصل

وغير ذلك مما لهج به الشعراء والكتاب ، وامتلأت به بطون الكتب .

ولقد تبوأت هذه الأسرة أيام الرشيد من المكانة ما تطاولت اليه آمال النابغين حتى اننا لنستطيع أن نقف على مبلغ خطرها ، وثقة هارون في أفرادها ، أن فوض اليهم أمور دولته ، ولا نعجب اذا انصرف الناس اليهم ، ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم ، والتغنى بالجود والكرم الذى كان مضرب الأمثال .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

وقد قيل أن الرشيد حج ومعه بن خالد بن برمك وابنـاه الفضل وجعفر ، فلما وصلوا الى المدينة المنورة ، جلس الرشيد ومعـه يحيى فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المـأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيـات الثـلاث .

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه ، أنه كان اذا ركب أعد صررا فى كل منها مائتا درهم ، يدفعها الى الذين يقفون فى طريقـه ، ويلتمسـون معـونته .

لقد كانت أسرة بلغت أسمى ما تبلغـه أسرة فى تاريخ الزمان ، وأضحى اسمها على كل لسان ، وكانت الموئل ، والمعين الذى لا ينضب، بل كانت كل شىء فى حياة الناس ، وليس أدل على ذلك من قول أحـد الشـعراء .

أتانا بنو الآمال من آل برمك
فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا
وأخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلوا لنا الدجى
بمكة ما تمحو ثلاثة أقمـر
فما خلقت الا لجود أكفهم
واقدامهم الا لا لاعواد منبر

اذا راض يحيى الأمر ذلت صعابه
وناهيك عن راع لها ومدبر (١)

نهاية مؤلمة وقدر محتوم :

واذا كنا قد ذكرنا بعضا مما تبوأته هذه الأسرة فى عهد الرشيد، حيث وثق بافرادها ، وفوض اليهم أمور الدولة ، وبلغوا بذلك أوج العظمة وذروة المجد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، فقد نقع فى عجب من تصرف الرشيد حيالهم فى البدء والانتهاء ، اذ كيف أطلق أيديهم فى مقدرات الدولة اطلاقا لا يعرف قيودا أو حدودا ، ثم أخذهم بلا رحمة أو تهاون .

من المعروف أن طبيعة الملك الاستبدادى فى العصور الوسطى ، وفى عصر العباسيين لا تتلاقى أبدا مع مشاركة غيرهم لهم فى السلطان ، وهؤلاء البرامكة شاركوا بل أصبحوا وليس هناك سواهم مما أوغر صدور العرب عليهم ، باعتبارهم أسرة فارسية ، فحسدهم على مكانتهم، وتمنوا زوال نعمتهم ، فأخذوا يزرعون الغيرة فى قلب الخليفة ، ويتعهدونها بالنماء الى أن تجسمت عيوبهم ، وتكشفت هفواتهم . خاصة فيما يتصل بالملك ، فأخذ الخليفة يتوجس من طغيانهم ، ويحذر من سيطرتهم على الأمور ، خوفا منهم .

لذلك أخذ الرشيد يستيقظ ، ويفكر ، وينظر اليهم بعين الريبة والخوف ، ويستمع لصدى الأحاديث عنهم فى كل مجتمع وناد ، وسماع الوشاة الذين أرادوا النيل منهم ، بالقضاء عليهم وافساح الطريق أمامهم ، واستعدت نفسه للنيل منهم .

(١) د : عبد المقصود نصار : العصر العباسى الأول ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

والملك غلاب كما يقولون ، يغلب على كل شيء ، وقد تغلب علـــى الرشيد وغلبه ، فما دام الاعتداء يكون على الملك فلا برامكة ولا غيرهم « علويون ، عباسيون ، عرب » ، وهنا تغيرت طبيعته ، وانقلب انســـانا آخر غير الرشيد المعروف ، فأمر بالفتك بهم ، ولم يرحم صغيرا ولا كبيرا ، ولم يرع ليحيى جلال السن ، ولا للفضل منزلة الاخوة من الرضـــاع ، ولا لجعفر أياديه البيضاء ، ولا لغيرهم من أبناء الأسرة ما قدموا للدولة من أجل الخدمات وانما حصدهم حصدا ، ومحا أثرهم ، فأصبحت لا ترى الا مســـاكنهم •

لقد كانت اللحظة الحاسمة سنة ١٨٦ هـ ، اذ حج الرشـــيد فيها ، ولمـــا انصرف من حجه أتى الحيرة ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد أبناء خالد ، فانصرف الجميع حيث صحب جعفر فى السفن الى الأنبـــار ثم الى قصر الخلافة ، وهناك ضمه اليه وقال له ، لولا اننى أريد الجلوس مع أهل بيتى لم أفارقك • فسار جعفر الى منزله وواصل الرشيد الرسل اليه بالألطاف الى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسرور « وقيل انما استدعى غلامه يا سر المعروف برخله » ، وقال له : لقـــد انتخبتك لأمر لم أرض له محمدا ولا عبد الله ، فحقق ظنى واحـــذر أن تراجعنى فتهلك • قال : يا أمير المؤمنين لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت • قال الرشيد اذهب الى جعفر بن يحيى وجئنى برأسه الســـاعة ، فوجم لا يحير جـــوابا ، فقال له : مالك ؟ ويلك • قال : الأمر عظيم ، ووددت أنى مت قبل وقتى هذا ، فقال : أمض لأمرى ، فمضى حتى دخل علـــى جعفر وعنده أبو زكار ينشد هذا القول :

فلا تبعـــد فكل فتى ســـيأتى
علبه الموت يطرق أو يغادى

وكل ذخـــيرة لا بد يوما
وان بقيت تصير الى نفـــاد
ولو فوديت من جدث الليالى
فديتك بالطـــريف وبالتـــلاد

قال جعفر : يا مسرور سررتنى بقدومك ، وسؤتنى بدخولك من غير اذن ، فقال : الأمر أكبر من ذلك أجب أمير المؤمنين الى ما يريدك ، فقد أمرنى أن آتيه برأسك ، فوقع جعفر على رجليه يقبلهـــــا وقال : دعنى أدخل دارى وأوصى ، قال مسرور : لا سبيل الى الدخول ، ولكن أوصى ما بدالك ، قال : لى عليك حق ولا تقدر على مكافأتى الا الساعة ، قال : تجدنى سميعا الا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين ، قال جعفر : خذنى معك وأعلمه أنك نفذت أمره ، فان ندم أخبرته بالحقيقة ، وان أخبر عـــــدت فنفذت ما يريد ، قال : أما ذلك فنعم ، وسار به الى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ، ودخل الرشيد فأخبره بقتله ، فصاح : وأين رأسه ، فعاد مسرور الى جعفر فضرب عنقه ، وحمل الى الخليفة رأسه (١) .

وأرسل الرشيد من ليلته من أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحول الفضل بن يحيى فحبس فى بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى فى منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع وغير ذلك كما أرسل كذلك الى سائر البلاد بقبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأســـــبابهم وكل

---

(١) راجع تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ١٩٠ ، الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٣٤ ، ابن الأثير الكامل حـ ٦ ص ١٧٧ ــ ١٧٨ ، المسعودى : مروج الذهب حـ٢ ص ٢٨٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ١ ص ١٠٩ ، ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٦ ، النويرى : نهاية الأدب جـ ٢٢ ص ١٣٩ .

مالهم . ولما أصبح أرسل جيفة جعفر الى بغـــداد ، وأمر أن ينصب رأسه على جسده ويقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر ، وكان ذلك في أول صفر سنة ١٨٧ هـ (١) ليلة السبت الذى ذكـره الرقاش فى شـــعر يقول :

أيا سبت يا شر السبوت صبيحة
ويا صفر المشئوم ماجئت أشأما
أتى السبت بالأمر الذى هد ركننا
وفى صفر جاء البلاد مصمما (٢)

وقد بقى جعفر مصلوبا حتى أراد الرشيد الخروج الى خراسان ، فلما مر عليه أمر السندى بحرقه ، فجمع له شوكا وحطبا وأحرقه (٣) .

ولم يوجد ليحيى بن خالد الا خمسة آلاف دينار فقط ، وللفضـل أربعون درهم ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى شىء ولا لجعفر شىء .

وهكذا قضى على الأسرة البرمكية بهذه السهولة التى لا تتناسب مع مكانتها ، فقد كان لها فى التاريخ ذكر طويل وأثر كبـــير فى العلوم والآداب ، كما كان أفراد هذه الأسرة زهرة الدولة العباسية كلها ، فقد كانوا وزراء ان كتبوا أجادوا ، وان قادوا الجيوش سدوا الثغور ، وان ولوا عملا أصلحوا .

---

(١) تاريخ بغداد جـ٧ ص ١٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى جـ٨ ص ٣٠٠ .
(٣) تاريخ الطبرى جـ٨ ص ٢٩٨ .

ومكث يحيى فى السجن مدة تربو على ثلاث سنوات ، قاس فيهـا الكثير ، فقد ضيق عليه الرشيد وعلى ابنه الفضل ، ومنـــع الناس من رؤيتهما أو زيارتهما ، وحسب عليهما كل شاردة وواردة وهما فى المحبس، حتى أنه سألهما فى احدى المرات عن سبب الضـــحك كمـــا يروى الجهشـــــيارى (١) ٠

وقد سأل يحيى بعض بنيه وهو فى السجن والقيود : يا أبت بعـــد الأمر والنهى والنعمة صرنا الى هذا الحال ، فقال : يا بنى دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها ، ثم أنشد يقول :

رب قوم قد غدوا فى نعمة
زمنا والدهر ريان غـــدق
سكت الدهـــر زمانا عنهم
ثم أبكاهم دما حين نطـــق (٢)

وكانت وفاة يحيى بن خـــالد فى الحبس بالرافقة لثلاث خلون من المحرم سنة ١٩٠ هـ (٣) وصلى عليه ابن الفضـــل ، ودفن على شـــط الفرات ٠ وقد وجد فى جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه « قد تقدم الخصم المدعا عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العـــدل الذى لا يجـــور ولا يحتاج الى بينة » (٤) ٠

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٤٥ ٠
(٢) ابن كثير :البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٠٥ ٠
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٩٨ ٠
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٥ ٠

أما الفضل فقد قاس من التضييق فى السجن الشىء الكثير ، وأسىء اليه حتى أنه ضرب مائتى سوط للكشف عن الأموال التى يخفيها ، وكان جوابه على مسرور الخادم الذى تولى ضربه ، أنت تعـلم يا أبا هاشم أنى كنت أقى عرضى بمالى ، فكيف أقى مالى بنفسى فى هـــذا الوقت والله ما عندى شىء ، ولو كان عندى ما سترته ولا رويت عنه » (١) .

وكان يتمثل فى السجن بأبيات تقوى عزمه ، وتدفعه للتحمل والتثبت، وان أبكته ومنها :

الى الله فيما نالنا نرفع الشكوى
ففى يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها
فلا نحن فى الأموات فيها ولا الأحيا
اذا جاءنا السجان يوما لحاجــة
عجبنا وقلنا جاء هــذا من الدنيا (٢)

وظل الفضل فى الحبس بالرقة على هذه الصورة ، حيث أصابه ثقل فى لسانه وشقه ، عولج منه أشهرا فبرأ ، ثم انتكس ، ومات فى المحــرم سنة ١٩٣ هـ ، بعد ست سنوات قضاها فى السجن . وصلى عليه اخــوانه فى القصر الذى كان فيه ، ثم أخرج فصلى عليه الناس ، وجزعوا عليه ، فقد كان من محاسن الدنيا ، لم ير فى العالم مثله (٢) .

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٤٤ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ١٠ ص ٢١٢ .
(٣) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٣٤١ ، الكامل فى التاريخ حـ٦ ص ٢١٠ .

أسـباب النكبـة :

لقد عاش الناس فى عهد الرشيد وبعده يشغلون أنفسهم بمحاولة العثور على الأسباب المقبولة لما أصاب هذه الأسرة ، وحاول الجميع عرض شعورهم الطيب نحو أصحاب تلك المأساة ، فى صـورة مراث شعرية ــ كما سنرى بعد ــ تسجل أمجاد البرامكة الضائعة ، ولم يتطور الاحساس بهذه المأساة الى ما يشبه الاحتجاج على هـذا القرار ، أو ما يشبه الاعتراض على هذا الحكم ، أو ما يشبه التهديد بالانتقـام فى المستقبل ، بل صارت الأمور عادية •

وكان من الأمور الغريبة الا تثار الخواطر الى تلك الدرجـة من الأهمية حول أى حادث بمثل ما أثيرت حول نكبة البرامكة فى عهـد الرشيد ، لأن هذه الأسرة مارست ادارة الدولة العباسية مدة سبعة عشر عاما كملا ، كانت فى قمة السلطة فى عهد خليفة لم تعرف الشهرة العالمية لواحد من الخلفاء مثله ، مما أعطاها هذه الأهمية •

ولقد قيل أن هذه الأسرة نفسها كانت من أسباب مجد الخليفـة الرشيد ، وأنها فتحت أبواق دعايتها المسرفة حتى جعلته فوق المستويات، وعادت تلك الأبواق مرة أخرى بعد القضاء على خطـر هـذه الأسر ، لتسجل خطر العباسيين على تطلعات الفرس •

ولما لم يكن عند البرامكة فرصة للدفاع عن النفس ، اذ أنهم لم يواجهوا بتهم يستطيعون رفضها أو معارضتها ، لأن الخليفـة لم يكن مستعدا لأن يشغل وقته ودولته بقضية كبرى أمام أسرة أجنبية لم يكن مسموحا لها أن تعطى فرصة الدفاع عن النفس بوسيلة أو بأخرى •

وان كان هذا يخالف تعاليم الاسلام •

ولما كان الأمر كذلك ، فقد عرض المؤرخون وجهات نظرهم حول أسباب تلك القضية السياسية المعروفة ، مع أن هذه القضية ما كان لها أن تكون غير واحدةمن القضايا العارضة التىيحفل بها تاريخالعباسيين وغيرهم من الحكام طوال عصور التاريخ ، فلم يكن البرامكة غير أسرة فارسية أسعدتها الحياة بوضعها المتميز فى قمة السلطة التنفيذية فى عهد الرشيد ، ثم انتهى دورها بأمر هذا الخليفة نفسه كما كان ينتهى أمر غيرها من الأسر الكبرى قبل ذلك العهد وبعده .

وقد بدأ التماس العلل والأسباب لهذا الأمر بعد حدوثه بفترة من الزمن ، واختلفوا فيما بينهم حول أهمية هذه الأسباب ، وأوضحها ، ومن وجهة نظرنا المحايدة نحاول استخلاص الأسباب التى أودت فى رأينا بهذه الأسرة ومنها :

١ ـ أن الفرس كانوا يطمحون الى ارجاع الدولة الفارسية الى عهدها القديم ، ومجدها ، الغابر ، وعزها التالد ، لذلك نشروا حكمتها ، وأذاعوا تاريخها ، وأبانوا مجد رجالها ، وصاروا كلما نبعث دولة عربية ـ بعد الاسلام ـ يكيدون لها ، ويوقعون بين أبناء الأعمام لما فى طبيعة البشر من حب الاستئثار والانفراد بالغلبة ، والاستقلال بالعظمة ، والتفرد بالجلال والأبهة .

٢ ـ لقد كان من الطبيعى أن يتحرك الفرس بهذه الطريقة ، لاسترداد حقوقهم ، كما أن نفوسهم قد عاودها الحنين الى السلطان والظهور . ولم تكن العصبية العربية وحدها هى التى حركتهم للخروج على الدولة ، والتمرد على خلفائها ، والانضمام الى سائر الأحزاب المعارضة . وانما كان الشعور القومى ، والعصبية الجنسية المتأصلة فى نفوسهم هى التى غذت حركاتهم ، وساعدت على نموها .

ولقد وضح هذا المعنى لدى العرب منذ طعن الخليفة عمر بن الخطاب، فقد كانت هذه المأساة انذارا وجهه الأعاجم الى العرب ، فابتدأ الفريقان منذ تلك اللحظة يودعان عهد الصفا ، والمودة ، وأخذ ذلك الشعار الجميل الذى أسدله الاسلام على النفوس ينكشف رويدا رويدا لكى تظهر من ورائه الأطماع الكامنة ، والحزازات القديمة . ولذلك كان الفرس ينتهزون الفرص كلما لاحت لهم فى سبيل القضاء على الدولة العربية « الأموية » وانضووا لذلك وراء لواء كل خارج على الدولة كابن الزبير ، والمختار الثقفى ، وعبد الرحمن بن الأشعث.

ولما أخذت الدعوة الى الرضا من آل محمد تظهر فى أوائل القرن الثانى الهجرى اختيرت خراسان الفارسية لنشر هذه الدعوة ، فهى بوضعها الجغرافى بعيدا عن عاصمة الدولة ، وظروفها الاجتماعية التى تجلت فى السخط والعداء للدولة الأموية ، فوجدت التأييد الكامل ، والتعصب الشديد لها ، وانضوى الفرس بعامة تحت لوائها ، وساندوها بكل ما يملكون ، وذلك كيدا لبنى أمية .

فلما زالت دولتهم ، وذهبت ريحها ، واستبد بنو العباس بالأمر ، وعجز الفرس عن تحقيق ما يريدون عمدوا الى الوقيعة بين العباسيين والعلويين لاضعاف شأن القوتين ، لتكون لهم الغلبة فى النهاية، ويتحكموا فى مجريات الأمور ، وقد كان العباسيون يقظين لتدبير الفرس ، ومحاولتهم فى الوقيعة ، لذلك عمدوا الى التخلص من المنافسين « علويين وفرس » ممن يشتمون منهم رائحة الخروج عليهم ، أو الاستئثار بالأمر دونهم . . .

ولا ندعى على الفرس رغبتهم فى النفوذ والسلطان ، فقد بدأ ظهور ذلك فيما بعد ، حين استقلوا بالولايات الفارسية كخطوة أولى

نحو تحقيق هدفهم ، فهذا طاهر بن الحسين ، يؤسس الدولة الطاهرية « ٢٠٥ ــ ٢٥٩ هـ » ، ويعقوب بن الليث بن الصفار ، يؤسس الدولة الصفارية بفارس سنة ٢٥٤ هـ ، كما ظهرت الدولة السامانية سنة ٢٦١هـ فيما وراء النهر ، والدولة الساجية بأذربيجان سنة ٢٦٦هـ ، والدولة الزيارية بجرجان سنة ٣٢٩ هـ ، ثم الدولة البويهية سنة ٣٢٠ هـ • فهذه الامارات كأنها طلائع للملك الذى كان يحلم به الفرس ، على مارسمه أسلافهم ، وأسسه آباؤهم ، وقد عرفه الرشيد ــ كما عرفه أسلافه ــ ففتك بالبرامكة •

٢ ــ ما يؤكد ما ذهبنا اليه ، وان البرامكة كانوا يأملون عودة النفوذ القديم ، ما ذكر فى مجلس فارس خاص أمام جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، من أن أبا مسلم الخراسانى كان من أعظم الشخصيات لأنه نقل الدولة من قوم الى قوم بالقتل وسفك الدماء ، وكان جواب جعفر أو تعليقه على ذلك :

انما الرجل من ينقلها من غير سفك دم لأن أبا مسلم فعل ذلك بقتل ٦٠٠ ألف نفس • فسمع ذلك الخزريان اللذان أهداهما الرشيد لجعفر ليخبراه بكل مايدور فى مجالسهم، فأعلماه بما قال• فهذا ما حمل الخليفة على الفتك به وبسائر الأسرة والشركاء فى تدبير المكيدة السياسية • اذ لو أن الأمر كان قاصرا على جعفر كما يزعم عشاق الروايات لم يكن هناك معنى لحبس يحيى ولا استئصال البرامكة •

وما يؤكد ذلك أن الرشيد لم يتأثر بالمحاولات التى بذلتها الأسرة لفك يحيى وجعفر من الحبس • فقد ذكر المؤرخون أن زوجة يحيى أم الفضل ، وكانت أما للرشيد من الرضاعة كما سبق ، وكان قد آلى على

نفسه وهو فى كفالتها ألا يحجبها ولا تتشفع اليه فى مذنب الا قبل شفاعتهما ، فلما سجن يحيى بعد قتل جعفر • ودارت الدائرة على البرامكة ، خرجت اليه كاشفة وجهها ، فتلقاها وأكب على تقبيل يديها ، فذكرته بحق الرضاعة والحنو ، وكيف يجور عليها الزمان وهو ابنها ، وأحب الناس اليها ، ثم قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك •

فقال لها : يا أم الرشيد ، قدر سبق ، وقضاء حم ، وغضب من الله نفذ • وطالت بينهما الى أن قال لها :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قيل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

ومما فعلته أنها أخرجت حقا من زمردة فيه ذؤابته وثناياها ، وتوسلت بذلك اليه ، ولم تقبل وسيلتها ، وعرض عليها شراؤه بالمال كما تشاء ، أما اطلاق يحيى فلا سبيل اليه ، فقامت غضبى وتركته ولم ترجع •

ولما علم يحيى أن زوجته أخفقت فى مسعاها ، ولم تنل مرادها ، أرسل الى الخليفة رسالة طويلة (١) يستعطفه فيها ليرضى عنه ومنها قوله :

---

(١) موجودة فى كمامة الزهر لابن بدرون ص ٢٣٤ ـ ٢٣٤ ، نهاية الأرب للنويرى جـ ٢٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٨ •

« من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوثقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، وزل به الزمان ، وأناخ عليه الحدثان ، فصار الى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر وافتقد الهجوع ، فساعته شهر وليلته دهر ، قـد عاين الموت ، وشارف الفوت » .

الى أن قال : « ... ولست أعتذر ولكنى أقر ، وقد رجوت أن يظهر عند الرضى وضوح عذرى ، وصدق نيتى ، وظاهـــر طاعتى ، وفلج حجتى ... » وختم الرسالة بأبيات من الشعر منها :

ان البـــرامكة الذيـ
ـــن رموا لديك بداهية
عمتهم لك ســـخطهم
لم تبـق منهم باقيـة
فـــكأنهم ممـــا بهم
أعجـاز نخـل خـاوية
صـــفر الوجوه عليهم
خلع المـــذلة بادية
مســـتضعفون مطردو
ن بكل أرض قاصـية
من دون ما يلقون من
عتب يشيب الناصـية
أضحوا وكل منـــاهم
منـك الرضـا والعافية
بعـــد الوزارة والاما
رة والأمور العـــالية

انظر الى الشيخ الكبـ
ـير فنفسه لك راجية

أخليفـــة الله الرضـــا
لا تشـــمتن أعدائية

أرحم جعلت لك الفدا
كربى وشـــدة حاليه

ويروى أن الرشيد لمـا قرأ هذه الرسالة وأبياتها ، وقع تحتهـــا بقـــوله :

أجرى القضـاء عليكم
ما جئتمـوه عـلانيه

من ترك نصح امامكم
عنـد الأمور البـادية

يا آل برمـك انمـا
كنتـم ملوكا عـــادية

فكفــــرتم وعصـيتم
وجحــدتم نعمـائية

فســـلبتموها هــكذا
وكذا ترد العـــارية

هــذى عقوبة من عصا
معبـوده وعصـــانية

ثم كتب هذه الآية الكريمة من سورة النحل :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغدا من

كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١)

هذا الاستعطاف يدل على أنهم دبروا مكيدة لقلب الملك ، وإلا لتأثر الرشيد به ، وعفى ولو عن يحيى لسابق أياديه .

٣ ـ الاستبداد بالأمر والدالة على الخليفة، ذلك أن هذه الأسرة الفارسية قد وصلت الى درجة بالغة من النفوذ المطلق ، حتى استطاعت أن تسجن الخليفة فى قصره ، وكانت تهدده فى صمت واضح بأن يصبح انسانا تافها لا يعنيه من شئون الأمن والحرب والسياسة والمال والمستقبل شيئا ، فهذه كلها كانت لغيره من وزرائه البرامكة . وكان الخليفة يشكو الى خاصته من مثل هذا الخطر الداهم ولا سيما بعد أن أخذ نصيبا وافيا من الفراغ ، فأصبح لايشعر بالحاجة اليه أو الاندفاع فى أسبابه ، بعد أن سد عليه وزراؤه كل مجالات العمل المباح ، واكتفوا بجهودهم دونه ثم تطور الشعور بالفراغ القاتل الى العداء الصريح ، والخصومة القاتلة ، ولعب أعداؤهم على هذا الوتر الحساس ، فصادفوا قبولا حسنا عند الخليفة الراغب فى استرداد سلطته الضائعة .

لقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والأسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم ، وصنائعهم ، واختاروها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحماية وسيف وقلم .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٢٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ (الآية ١١٢) .

ويقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف ، وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة الرشيد • لذلك انصرفت نحوهم الوجـوه وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وتحف الأمراء ، وسيرت الى خزائنهم الأموال استمالة وتزلفا ، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسـندوا لعفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من النواحى والأمصار فى سائر الممالك حتى آمنـوا البطانة ، وأحفظوا الخاصـة ، وأغضبوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسـد ، ودبت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية •

وقارن ذلك عند مخدومهم « الخليفة » نواشىء الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، فقد أظهر جعفر ويحيى منها على الخليفة ما لا تسـتطيبه أنفس الملوك ، وانتهى الأمر بالفتك بهم ، لأن معنى ذلك الاسـتبداد بأمور الدولة ، والقيام على شئونها ، وهذا يعنى أن لهم الأمر والنهى ، والحل والعقد ، أما الخيفة فلا سلطان له ، وهذا أيضا يعنى سيطرة الفرس على مقدرات الدولة •

وهذا الأمر رجحه ابن خلدون من أسباب النكبة حين قال :

« ان نكبة البرامكة كانت ناشـئة عن اسـتبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المـال

فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجـوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال » «١» •

٤ ــ اتهام البرامكة بعدم الولاء لدولة بنى العباس ، وأنهم عـلى اتصال مشوب بالعناصر العلوية الراغضة سلطة العباسيين • وهـذه الشبهة ظلت قائمة طوال الزمن ، وزاد من وضوحها حسن تعامل البرامكة مع العلويين الثائرين على الخليفة هارون الرشـيد ، واذا لم يكن فى سلوك البرامكة ما يثبت حقيقة التآمر على الدولة لصـالح العلويين فى الظاهر ، فانهم كانوا يعطفون على العلويين •

وهذا فى حد ذاته أمر شديد الحساسية للخليفة ، وان لم يكن فى صالح البرامكة •

لقد ثار يحيى بن عبد الله ببلاد الديلم سنة ١٧٦ هـ ، وقوى أمره ، وعظم نفوذه ، فأرسل الرشيد اليه الفضل بن يحيى ، الذى اسـتطاع أن يقضى على خطره عن طريق المفاوضات ثم كتب للرشيد بذلك على أن يكتب ليحيى كتاب أمان يشهد عليه ، ويشهد عليه أهله ، وقد كان ، فلما قدم الى بغداد استقبله الرشيد استقبالا حسنا ، وخلع عليه ، وأكرمه اكراما زائدا ، ولم يظل الأمر على ذلك ، فان الوشاة أو السعاة ، رفعوا عن يحيى الى الخليفة ما يريب ، وكان الرشيد يرتاب بأقل شىء ، وقد رفع اليه أن يحيى لا يزال يدعو الى نفسه ، وينتهز الفرصة للظهور ،

---

(١) المقدمة ص ١١ ، ١٢ •

وكان أكثر الناس سعيا فى ذلك بكار بن عبد الله الزبيرى ، وكان شديد البغض لآل أبى طالب ، ويبلغ عنهم الرشيد ، ويسىء بأخبارهم اليه ، لذلك حبس الرشيد يحيى ، وضيق عليه ، وحاول أن يقتله ، ولم يكن يمنعه الا ضيقه أن يقول الناس فيه شيئا لما كتبه له من أمان ، لذلك تحيل حتى أبطله (١) .

ويبدو أن الفضل بن الربيع كان يحرك السعاة بيحيى عند الرشيد لأن فى قتله اذلالا لمن كان السبب فى استنزاله ، وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة كما سنرى بعد ، أو يساميهم على الأقل لما يرى من وفرة أموالهم ، وقوة سلطانهم ، والذى وضح لنا سعى الفضل بن الربيع بذلك ، ان الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى الى الربيع وقال له : هذا والله من آفاتك .

ولذلك أمر الرشيد التحفظ على يحيى وحبسه عند جعفر البرمكى، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك به الرشيد اتصل جعفر ، وقال له : اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثا ، ولا آويت محدثا ، فرق له جعفر ، وأمره بالسير حيث شاء ، فقال له : كيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ؟ فوجه معه من أبلغه وأمنه (٢) .

وقد بلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كان له من خواص جعفر، فرفعه الى الرشيد الذى أراه أنه لا يعبأ بخبره ، وقال : وما أنت وهذا؟

---

(١) الكامل لابن الاثير حـ ٦ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير حـ ١٠ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ٦ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

فلعل ذلك عن أمرى ، وجاءه جعفر كما هى العادة ، فدعا بالغذاء فأكلا ، وتحادثا معا ، حتى كان آخر كلام الخليفـــه لجعفر : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال ، فقال بحياتى ؟ فاحجم جعفر — وكان من أدق الخلق ذهنا ، وأصحهم فكرا — وقد فطن أنه قد علم بشىء من أمره ، فقال : لا وحياتك ، وقد أطلقته ، وعلمت أنه لا حياة به ، ولا مكر عنده ، قال : نعم ما فعلت ما عدوت ما كان فى نفسى ، فلما خرج اتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال : قتلنى الله ان لم أقتلك (١) .

فالرشيد ، وان كان يحتمل لجعفر كثيرا من الادلال ، لا يحتمل له هذا التصرف، لأنه أمر متعلق بملكه، اذ أن من أخص صفات الوزراء كما هو معروف الاخلاص لملوكهم ، وهذا فى حد ذاته يعتبر طعنـــا فى ولائه للخليفة ، وظهر للخليفة أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهـــدى ، وهى الطـــريقة التى استغلها الربيع بن يونس والد الفضـــل ســـالف الذكر ضـــد أبى عبيد الله معاوية بن يسار الذى كان يعتبر مثالا للنزاهة والكفاءة ، فاتهم ابن معاوية بالزندقة ليفسح له الطريق فأمره المهدى بقتله .

لذلك لم يتوان الرشيد فى تنفيذ أمره فى البرامكة بعد أن ظهـــر تواطؤهم مع العلويين (٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٨٩ ، الاصفهانى : مقاتل الصـــالبيين ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

(٢) وبالنسبة ليحيى بن عبد الله فقد قبض عليه ، ثم حبس ، وقيل ان الرشيد أمر ان تبنى عليه اسطوانة بالرافقه وهو حى . وقيل أنه أمر من دس له السم ، وقيل انه دس اليه فى الليل من خنقه ، وقيل القاه للسباع الجائعة .

راجع مقاتل الطالبيين ص ٤٨٢ .

٥ ـ لقد كان نجاح البرامكة فى أعمالهم يزيد من حقد الحاقدين عليهم ، فكما يزيد الأعداء فى حالة الفشل ، فهم يزيدون كذلك فى حالات النجاح ، وقد يجد الفاشلون من يلتمس لهم العذر فى فشلهم ، وقد يجد الناجحون من يحسنون تقليل نجاحهم الا أن المستفيدين من نجاح البرامكة لم يكونوا يأملون فى مثل مكانتهم، ولم يكن منهم الكثيرون ممن يقيمون حول صاحب السلطة العليا فى الدولة العباسية •

لقد كان البرامكة فى أوائل عهد الرشيد ـ كما سبق القول ـ أصحاب الأمر والنهى ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران « صاحبة الأمر والنهى فى الدولة » تعمل على ابعاده عن القصر، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل بن استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب الى الرشيد عن طريق زبيدة زوجه فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال وقد كانت هى الأخرى كزوجها لا نفوذ لها فى الدولة مع الخيزران ، ولذلك لم ينل الفضل شيئا من نباهة الذكر الى أن توفيت أم الخليفة •

ويقول ابن الأثير فى ذلك : « انه لما ماتت الخيزران ، حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها فى مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع ، وأخذه من جعفر بن يحيى » •

ويضيف ابن الأثير : أن الرشيد قال للفضل : « وحق المهدى انى كنت لا هم لك بالشىء من التولية وغيرها فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر (١) •

---

(١) الكامل حـ ٦ ص ١١٩ • وانظر ما سعى به الفضل ايضا فى الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣٩ ـ ٢٥١ •

وبذلك بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل بيسر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج الى جهد كبير ، ووقت طويل حتى وصل الى بغيته ، وهى الوقيعة بالبرامكة عند الرشيد ، فقد كان فى حيله وائتماره يتمثل اتجاهات أبيه ، ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع يتخذ ابان بن صدقة كاتب أبى أيوب المورياني عينا له على أبى أيوب ، اتخذ الفضل اسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم . وكما كان الربيع يستعين بالقشيرى عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلى بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز اليه أن يشى لدى الرشيد بموسى ابن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير اليهم ويخرجهم عن الطاعة ، فحبسه الرشيد ، ثم أطلقه (١) .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة فقد كان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ، ويدرك مكانتها لديه ، فعرفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى فى القصر ، كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى البرمكى وابنه جعفر الى المأمون ، وشدد الايمان فى الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ، وقد اتخذ الفضل هذه الفرصة ليغرى زبيدة بهم ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على ابنها الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، وهى سعاية الفضل ، يحدثنا عنها عبد الله بن سليمان بن وهب فيقول : ان من أسباب زوال أمر

---

(١) الكامل ح ٦ ص ١٧٧ .

البرامكة تقصيرهم فى الفضل بن الربيع ؛ ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلل يحيى فى كل رقعة بعلة ولم يوقع فى شيء منها ، فاضطرب الفضل غيظا ، وخرج وهو يقول :

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه
بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك
وتحدث من بعد الأمور أمور (١)

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يهيء السوء ، فأخذ يستر المحاسن ، ويظهر القبائح كما يقول ابن خلكان (٢) .

وكان من نتيجة وشاية الفضل أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجاه البرامكة ، وكان لهذا الفتور صور عديدة .

منها : صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته سنة ١٧٩ هـ ، وقلدها الفضل بن الربيع ؛ وكانت أهمية هذا بالاضافة الى الانحراف عن البرامكة أن تمكن الفضل من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين اليه ، المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدسائسه ، وجعل الرشيد أقرب الى الاستجابة (٣) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ١ ص ٤١٣ ، الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٥١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٧ .

ولم يكتف الفضل بالفتور والانحراف الذى بدأ من الرشيد للبرامكة كأول ثمرة يجنيها من وقيعته وافساده ووشايته ، وانما استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق على وتر حساس هيج الرشيد ، وأثار حفيظته ، فأشاع أن البرامكة ملاحدة وثنيون يحنون الى دين أجدادهم « كما سنرى بعد قليل » كما أوعز اليه أنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة اليهم — وقد سبق — .

كما حاول بشتى الطرق أن يوقع بين الرشيد والبرامكة ، حتى أثمرت جهوده ، ونجح دسه ، فوصل الى الغاية التى أجهد نفسه من أجلها ، وتحقق له ما تمنى .

ولسنا موافقين له على هذا التصرف المشين ، ولو كان تعصبا للعرب ضد الفرس ، فالاسلام لا يعرف ذلك ، وان حركهم جميعا هذا التعصب عرب وغير عرب .

٦ — لم يكن الفضل بن الربيع هو الوحيد الذى اتهم البرامكة بالزندقة ، بل يرميهم البغدادى بها ، وبالميل الى مذاهب المجوس ، فعند كلامه عن الباطنية يقول :

« ولم يمكنهم — الباطنية — اظهار عبادة النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن يكون فى كل مسجد مجمرة — موقد — يوضع عليها الند — الطيب — والعود فى كل حال . وكان البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف النار مجمرة يتبخر عليها العود أبدا ، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد اسباب قبض الرشيد على البرامكة (١) .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٠ .

كما يذكر ابن النديم أن « البرامكةبأسرها ــ الا محمد بن خالد بن برمك ــ كانت زنادقة » (١) .

كما أن الأصمعى هجا البرامكة بقوله :

اذا ذكر الشرك فى مجلس
أضــــاءت وجوه بنى برمك
ولـــو تليت بينهـــم آية
أتوا بالأحاديث عن مزدك (٢)

كما يذكر الجهشيارى أن الرشيد أمر يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم ايوان كسرى فقال له : لا تهدم بناء دل على فخامة شـــأن بانيه الذى غلبته ، وأخذت ملكه .

قال : هذا من ميلك الى المجوس ، لابد من هدمه ، فقدر للنفقة على هدفه شيئا استكثره الرشيد ، وأمر بترك هدمه ، فقال له يحيى : لم يكن ينبغى لك أن تأمر بهدمه ، واذ قد أمرت فليس يحسن لك أن تظهر عجزا عن هدم بناء بناه عدوك فلم يقبل قوله ولم يهدمه » (٣) .

كما كان العتابى الشاعر يقول بالاعتزال ، فاتصل ذلك بالرشـــيد ، وكثر عليه فى أمره ، فأمر فيه بأمر عظيم ، فهرب الى اليمن فكان مقيما بها ، فاحتال يحيى بن خالد الى أن أسمع الرشيد شيئا من رســـالته وخطبه ، فاستحسن الرشيد ذلك ، وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقـــال :

---

(١) الفهرست ص ٤٧٣ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء الكتاب ص ١٠٦ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٢٢٩ .

هذا للعتابى ، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هـذا الكلام ، ويصنع لهما حطبا لكان ذلك أصلح ، فأمر باحضاره وأخـذ له الأمان ، فاتصل العتابى فقال :

ما زلت فى سكرات الموت مطرحا
قد غاب عنى وجـوه الأمر من حيلى
فلم تزل دائبا تسعى لتنقـذنى
حتى استللت حياتى من يدى أجلى(١)

ورغم ظهور هذا الأمر الذى أثار الرشيد ، وأحفظـه عليهم حتى نكبهم ، فقد ظهر من دافع عنهم فى هذه التهمة فيذكر الجهشـيارى أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال :

« سألت مسرورا الكبير فى أيام المتوكل ، وكان قد عمر اليها ، ومات فيها عن سبب قتل الرشيد لجعفر ، وايقاعه بالبرامكة ، فقال : كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ، وأمر المجامر التى اتخـذها للبخور فى الكعبة ؟ فقلت له : ما أردت غيره ، فقال : لا والله ما لشىء من هذا أصل ، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم » (٢) .

ولما نقل الفضل بن يحيى من محبس كان فيه الى محبس آخر ، وقف له بعض العامة فدعا عليه ، فاضطرب لذلك اضطرابا لم ير مضطربا قبله مثله فى شىء من حوادث النكبة ، فعلم أن دعاءه عليه لما علم أنهم زنادقة ، فقال الفضل معلقا على حال هذا الرجل :

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

غير ما طالبين ذخـــلا ولكـــكن ماَن دهر على أناس فمالوا (١)

٧ ـ وما يتصل أيضا بايقاع الفضل بن الربيع وأنصاره كما يرى البعض فقد احتالوا ، ودسوا للمغنيين شعر ايثير عامل المنافسة والحقد فى نفس الرشيد ، فأنشد مغنيا هذه الأبيات على مسامع الخليفة :

ليت هندا أنجزتنا ما تعـــد
وشفت أنفســـنا ممـــا نجد
واستبدت مرة واحــــــدة
انما العاجز من لا يســـتبد

فقال الرشيد : أجل انما العاجز من لا يستبعد ، وهكذا نجح أعداء البرامكة ومنافسوهم فى حيلتهم ، للتحريض على الايقاع بهم ، كما يدل عليه قول الخليفة .

ومن ناحية أخرى رفعت الى الرشيد قصة « ورقة » لم يعـــرف رافعها تحتوى على هذه الأبيات :

قل لأمين الله فى أرضـــــه
ومن اليه الحل والعقـــــد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا
مثلك ما بينـــكما حـــــد
أمـــرك مردود الى أمــــره
وأمـــــره ليس لــــــه رد
وقد بنى الدار التى ما بنى الـ
فرس لها مثلا ولا الهنـــد

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

الدر والياقوت حصباؤها
وتربهـا العنبر والنـد
ونحـن نخشى انه وارث
ملـك أن غيبـك اللحـد
ولا يباهى العبـد أربابه
الا اذا ما بطر العبـد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر السوء (١) .

وهذا تحريض للخليفة أيضا ، فهو كالقبس يدنيه القابس من الحطب فيلتهب ، وها قد اشتعل قلب الرشيد على هذه الأمرة .

٨ ـ ولما كان التعريض بالدار التى بناها جعفر ، والتى كانت من الأسباب نوضحها كالتالى : فقد ابتنى جعفر دارا غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وهذا رقم كبير جدا ، جعل المقربين اليه يتخوفون عاقبته ، فيذكر المؤرخون أن ابراهيم بن المهدى أتى جعفر فى داره فقال له : أما تعجب من منصور بن زياد ؟ قال ابراهيم فبماذا ؟ قال : سألته هل ترى فى دارى عيبا ؟ قال : نعم ، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة . قال ابراهيم : فقلت الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحوا من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شىء لا آمنه عليك غدا بين يدى أمير المؤمنين ، قال : هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك ، وضعف ذلك سوى ما عرضنى له . قال : قلت ان العدو إنما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول : يا أمير المؤمنين ، اذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته ، وأين

(١) وفيات الاعيان حـ ١ ص ١٠٨

صلاته ، وأين النوائب التى تنوبه ، وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟ وهذه جملة سريعة الى القلب ، والموقف على الحاصل منها صعب. قال جعفر : ان سمع منى قلت : ان لأمير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر لها ، أو باظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت الى نعمته عندى ، فوضعتها فى رأس جبل ثم قلت للناس : تعالوا فانظروا (١) .

ولم يحدث ما أعده جعفر للرد ، أو التماس العفو ، وانما كان المبلغ أكبر من هذه الالتماسات ، فاستعظمه الرشيد ، لأنه وجد فيه استبدادهم بالأمور دونه ، مما أوصلهم الى هذه المبالغة فى التأنق الذى وصل الى حد السرف ، فاذا كان هذا المبلغ « حوالى مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار » أنفق على البناء فقط ، فكيف بما ينفق على ما يحتاج اليه هذا البناء من أثاث ورياش ، وخدم وحشم ، وما الى ذلك من أسباب البذخ ، وألوان الترف التى تثير عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسادهم ، وتهيىء لهم السبيل للايقاع بهم عند الخليفة أليس فيما ذكره ابراهيم بن المهدى تنبؤ بأن النكبة آتية لا ريب فيها ؟

٩ ـ وكان من الأسباب فى رأى الطبرى ما تعده العامة سببا ، وهو أقوى الأسباب ما سمع من يحيى بن خالد وهو يقول ، وقد تعلق بأستار الكعبة فى حجته هذه سنة ١٨٧ « اللهم ان كان رضاك فى أن تسلبنى نعمك عندى فاسلبنى ، اللهم ان كان رضاك أن تسلبنى مالى وأهلى وولدى فاسلبنى الا الفضل ، ثم ولى ، فلما كان عند باب المسجد رجع فقال مثل ذلك ، وجعل يقول : اللهم انه سمج بمثلى أن يستثنى عليك ، اللهم والفضل » .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٩١ .

كما ذكر عن موسى بن يحيى أن والده تعلق بأستار الكعبة ويقول : اللهم ان ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك ، اللهم ان كنت تعاقبني ، فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا ، وان أحاط ذلك بسمعي وبصري وولدي ومالي حتى يبلغ رضاك ، ولا تجعل عقوبتي في الآخـــرة ، فاستجيب له (١) • وكأنه كان يخشى صروف الدهر ، وتغير الأحوال •

١٠ ــ ما يؤكد استئثارهم ، وامتلاكهم الضياع دون الرشيد مما أوغر قلبه عليهم ما ذكر من أن الرشيد قال لاسماعيل بن يحيى عمـــه ، وهما على فرسين : لمن هذه الضيعة يا اسماعيل ؟ قال : هي لأخيـــك جعفر بن يحيى ، فقال الرشيد : ولو سألتك عن كل ما بهذه الضاحية من الضياع لمـــا أجبت غير هذا الجواب ، فقال اسماعيل : انما البـــرامكة عبيدك وخدمك ، فعلم اسماعيل انه قاتل جعفر لا محالة ، ولمـــا خـــلا اسماعيل بجعفر وطلب منه أن يهب بعض ما يملك لأبناء أمير المؤمنين ، قال له : وهل أكل الخبز ابن عمك الا بفضلي ، فاعتزله اسماعيل ، واعتزل الرشيد معه حتى قضى الأمر (٢) •

١١ ــ ان الرشيد اشترى جارية بمائة ألف دينار ، وأرســـل الى يحيى بن خالد أن يدفع المـــال ، فقال يحيى : هذا مفتاح سوء اذا أخذ ثمن الجارية مائة ألف دينار ، فهو أحرى أن يطلب المـــال على قـــدر ذلك ، فأرسل اليه يحيى انني لا أقدر على هذا المـــال فغضب الرشـــيد وقال : لا بد منها ، فأرسل يحيى قيمتها دراهم ، وأمر أن تجعل عـــلى

---

(١) تاريخ الطبري حـ ٨ ص ٢٩٢ ، الكامل لابن الاثير حـ ٦ ص ١٧٦ ــ ١٧٧ •

(٢) انظر ابن كثير البداية والنهاية حـ ١٠ ص ١٨٩ ، طنطاوي جوهر : تبرأة العباسة ص ٥٣ •

طريق الرشيد ليستكثرها ففعل ذلك ، فاجتاز الرشيد بها ، فسأل عنها ، فقيل : هذه ثمن الجارية فاستكثرها ، وأمر برد الجارية ، وقال للخادم : ضم اليك هذا المــال ، واجعل لى بيت مال ، لاضم اليه ما أريد ، وسماه بيت مال العروس ، وأخذ فى التفتيش على الأموال ، فوجد البرامكة قد فرطوا فيها • أبعد هذا استبداد وطمع فى السيطرة والتسلط علىمقدرات الأمور ، وحجب الأموال عن الخليفة ، المسئول الأول عن الدولة ، وكيف يفسر هذا السبب بما سبقه من امتلاك الضياع ، وبما أنفقه عــلى داره جعفـــر ؟

١٢ ــ ذكر المسعودى (١) أن بعض عمومة الرشيد صار الى يحيى ابن خالد ، عند تغير الرشيد له قبل الايقاع بهم فقال له : « ان أمــير المؤمنين ، قد أحب جمع الأموال ، وقد كثر ولده فهوير يد أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده ، فلو نظرت الى ضياعهم وأموالهم ، فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقربت اليه بها ، رجــوت أن يكون لك السلامة ، وأن يرجع لك أمير المؤمنين • فقال يحيى : والله لأن تزول النعمة عنى أحب الى من أن أزيلها عن قوم كنت سببها اليهم » •

وهذا أيضا استئثار بالسلطة وشدة نفوذ الفرس فى الدولة ، ممــا غير نفس الخليفة عليهم ، وعمل على الايقاع بهم •

١٣ ــ يذكر النويرى أن يقطين بن موسى « ت ١٨٦ هـ » ، كان من أكابر الشيعة (١) ، وممن كان مع ابراهيم الامام ، فقال يوما للرشيد : حدثنى مولاى ابراهيم الامام ان الخامس من خلفاء بنى العباس يغدر

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٢ •
(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٨٨ •

به كتابه ، فان لم يقتلهم قتلوه ، فقال له الرشيد : الله حدثك الامام بهذا ؟ قال : نعم (١) وزعم أن الغيب لا يعلمه الا الله ، فقد يكون ذلك انطباع يقطين ، أو تحريض منه على البرامكة .

١٤ ــ ان العيش الرتيب يورث الملل والسأم والمتاعب ، وأن من الخير أن يبتعد الأصدقاء عن بعضهم فى أحيان كثيرة ، وأن الوزراء البرامكة قد خانهم الذكاء المفرط ، فقد توقعوا السلامة ، والأمن الدائم، وهما لا يكونان فى حياة البشر .

فيروى ابن خلكان : أن سعيد بن سالم سئل عن جناية البرامكة التى استوجبت غضب الرشيد ، فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، ولكن طالت أيامهم ، وكل طويل مملوك ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب ، وما رأوا مثلها عدلا وأمنا ، وسعة أموال وفتوح ، وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بآمالهم دونه ، والملوك تتنفس بأقل من هذا ، فتعنت عليهم ، وتجنى ، وطلب مساءتهم (٢) .

١٥ ــ لقد كان فى مخطط هذه الأسرة افساح الطريق أمامهم ، ليعيدوا النفوذ الفارسى القديم كما سبق القول ، والا فقل لى بربك عندما أرسل الرشيد الفضل بن يحيى البرمكى الى بلاد خراسان سنة ١٧٨ هـ لماذا اتخذ له جندا خاصا من العجم بلغ عددهم خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدم منهم الى بغداد عشرون ألف رجل ، فسموا ببغداد

---

(١) نهاية الارب جـ ٢٢ ص ١٣٧ .
(٢) وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٠٨ .

الكرنبية ، أو الكرمينية ، وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم ، وجعلوا ولاءهم له (١) ؟

أليس ذلك فى حد ذاته استعداد غير مشروع لأمر غير مشروع ، ونية مبيتة على العدوان ؟ .

١٦ — أما ما أشيع عن العباسة أخت الرشيد من قيام علاقة عاطفية بينها وبين جعفر البرمكى ، تطورت الى لقاءات خفية بعيدا عن العيون والعقول ، مما أثمر كراهة ، كانت السبب فى نكبة الأسرة البرمكية ، فهذا شىء لا نسلم به ، وان ذكره جمع من المؤرخين بلا ترو أو نظر أو تحقيق ، حتى جاء عبد الرحمن بن خلدون « ت ٨٠٨ هـ » والذى فلسف التاريخ ، وبين أن مهمة المؤرخ الحقيقية هى المراجعة للأخبار والأحداث، ثم نقدها وتفسيرها وتعليلها ، ولذلك نراه فى مقدمته المشهورة عارض المؤرخين كافة فيما نقلوه عن العباسة وجعفر .

ويرى أنها من الحكايات المدخولة ، « وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ، فهى ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ، ومحبة الرسول وعمومته » ثم هى كما يقول أيضا :

« قريبة عهد ببداوة العروبة ، وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ، وموقع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها؟ وأين توجد الطهارة والذكاء اذا فقدوا من بيتها ، وكيف تلحم نسبها

---

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٥٧ ، البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٢ .

بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ وكيف يسوع من الرشيدان يصهر الى موالى الأعاجم ، على بعد همته وعظيم اباته ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها ، واستنكره ولج فى تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس » (١) .

ومما يؤيد بطلان هذا الرأى ، ما نعلمه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالى ، ففى عهد أبى جعفر المنصور تخلص من أقوى شخصية فى عصره وهو أبو مسلم الخراسانى لأنه تجرأ وطلب التزوج بامرأة عبد الله بن على العباسى عمه ، مما زاد حنقه عليه وساعده على الفتك به . فاذا كان الحال كما رأينا ، فهل يوافق الرشيد على زواج أخته بمولى مهما كان مركزه فى الدولة .

ان ذلك خرافة ، وحكاية مدخولة على التاريخ الاسلامى ، لتشويه أقطابه . ولم يكن هذا الأمر فى قليل أو كثير هو سبب القضاء على البرامكة ، فما أقوى الأسباب التى ذكرتها فى وضع نهاية لهذه الأسرة تتناسب مع ما أقدموا عليه من جرم

هل كان الأمر مفاجئا :

ولذا كان ما أوقعه الرشيد بالبرامكة أمرا لا مفر منه ، للأسباب العديدة التى ذكرتها ، فان هذا الأمر لم يأت بدون مقدمات ، ولم يقدم الرشيد على ما ارتكب دون أن تكون قد وضحت أمامه مكائدهم، وانكشف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤ .

المستور من تدبيرهم ، ولم يكن هذا التصرف مفاجئا ، أو وليد وقتـه ، وانما استغرق فترة من الزمن سعى فيها الساعون حتى أثروا عـلى الخليفة ، وظهرت من تصرفاته ما يدل على مجافاتهم ، وتغير معـاملته لهم ، والحد من تسلطهم ، وتقلص نفوذهم • وذلك لفساد أمرهم عنده•

وكان أو لما ظهر من هذا الفساد أن على بن عيسى سعى بموسى بن يحيى كما سبق القول ، واتهمه فى أمر خراسان ، واعـلم الرشيد أنه يكاتبهـم ليسـير اليهم ، ويخـرجهم عـن الطـاعة ، وكان موسى قد اختفى فعلا عن الأنظار لدين ركبه ، مما أكد شـكوك الخليفة فأمر بالقبض عليه ، ثم حبسه بالكوفة عند العباس بن موسى ، فـركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ، فأطلقه بضمان أبيه له • وقد علق الطبـرى على هذا التصرف بقوله :

« وكان ذلك أول ثلمة ثلموا بها » (١) •

وما يدل على تغير نظرة الرشيد اليهم ما روى عن بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد بمدينة السلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجله ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله يحيى بن خالد خـيرا تصـدى للأمور وأراحنى من النكد، ووفر أوقاتى على اللذة • ثم دخلت عليه وقد شرع يتغير عليهم ، وكان الفضل بن الربيع بين يديه ، فنظر فرأى الخيول كما رآها على تلك المرة فقال : أستبد يحيى بالأمور دونى ، وأمضـاها

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٢٩٣ ، وانظر الـكامل لابن الاثير حـ ٦ ص ١٧٧ •

على غير رأيي ، وعمل بما أحبه دون محبتى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها الا اسمها ، قال : فعلمت أنه سينكبهم . ثم نكبهم عقب ذلـــك (١) .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير اذن ، فدخل عيله يوما وعنده جبرائيل بن بختيشوع الطبيب ، فسلم فرد الرشيد ردا ضعيفا ، ثم أقبل الرشيد على جبرائيل فقال : أيدخل عليك منزلك بغير اذن ؟ قال: لا . قال : فما بالنا يدخل علينا بغير اذن ؟

فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ، ثم ان كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجردا ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، فاذا قد علمت فانى ســـأكون عنده فى الطبقة التى تجعلنى فيها ، فاســـتحيا هارون وقال : ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون (٢) .

وهذه العبارة تدل على مبلغ حقد الرشـــيد على البرامكة ، وعمله على الغض من شأنهم ، والتخلص منهم عندما تحين الفرصة .

وكان يحيى اذا دخل على الرشيد قام له الغلمان ، فقـــال الرشيد لمسرور : مر الغلمان لا يقومون ليحيى اذا دخل الدار ، فدخلهـــا فلم يقوموا فتغير لونه ، وكانوا بعد ذلك اذا رأوه أعرضوا عنه ، حتى أنه كان يطلب المـــاء للشرب فلا يلتفتون اليه ، وربما كرر الطلب أكثر من مرة حتى يجاب له (٣) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٤ ، الجهشيارى الوزراء الكتاب ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

(٢) تاريخ الطبرى حـ٨ ص ٢٨٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الاثير حـ ٦ ص ٧٧ .

أليس هذا استهتارا بهم حتى من الغلمان .

ويذكر الطبرى : أن زيد بن على ذكر له أن ابراهيم بن المهدى حدثه أن جعفر بن يحيى قال له يوما — وكان جعفر صاحبه عند الرشيد، وهو الذى قربه منه — انى قد استربت بأمر هذا الرجل «يعنى الرشيد» وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لى منه ، فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هذا ، واعلمنى ما ترى منه ، قال ابراهيم ففعلت ذلك فى يومى ، فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه ، حتى صرت الى شجرة فى طريقى فدخلتها ومن معى ، وأمرتهم باطفاء الشمع ، وأقبل الندماء يمرون بى واحدا بعد واحد فأراهم ولا يرونى ، حتى اذا لم يبق منهم أحد اذا أنا بجعفر قد طلع ، فلما جاوز الشجرة قال : أخرج يا حبيبى ، قال : فخرجت فقال : ماعندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا قال : عرفت عنايتك بما أعنى به، وانك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى ما رأيت منه ، وعلمت أنك تكره أن ترى واقفا فى مثل هذا الوقت . وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع ، فقضيت بأنك فيه . ثم قال : فهاته ما عندك ، قلت : رأيت الرجل يهزل اذا جددت ويجد اذا هزلت ، قال : كذا هو عندى ، فانصرف يا حبيبى (١) .

ويذكر الطبرى كذلك أن محمد بن الليث رفع رسالة الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر له أن يحيى بن خالد لا يغنى عنك من الله شيئا ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت اذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت فى عباده وبلاده ، فقلت : يا رب استكفيت يحيى أمور عبادك ، أتراك تحتج بحجة يرضى بها ، مع كلام فيه توبيخ وتقريع ، فدعا

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

الرشيد يحيى — وقد تقدم اليه خبر الرسالة — فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ، قال :فأى الرجال هو ؟ قال : متهم على الاسلام ، فأمر به فوضع فى المطبق دهرا • فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر باخراجه ، فأحضر ، فقال له بعد مخاطبة طويلة : يا محمد أتحببنني ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين • لأنك وضعت فى رجلى الأكبال ، وحلت بينى وبين العيال بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد للاسلام وأهله ، ويحب الالحاد وأهله ، فكيف أحبك ؟ قال الخليفة: صدقت ، وأمر باطلاقه ، ثم أعطـاه مائة ألف درهم • وقال له : انتقم الله ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثنى عليك • وكان هذا أول ماظهر من تغير حالهم (١) •

وقد سمع جعفر بن يحيى يوما يقول له : ليس لدارنا هـذه عيب الا أن صاحبها فيها قليل البقاء — يعنى نفسه — (٢) •

كما روى أن صلة جعفر الوثيقة بالخليفـة ، ورفع الكلفة بينهما ومنادمته اياه ، احفظت أباه وأخافته العاقبة ، فكان ينهى ابنـه من الاستمرار فيها ، وعن مقاومة الرشيد والأنس به فيترك جعفر أمر أبيه، لذلك وحين أعيته الحيلة أهمله ، ثم كتب اليه :

« انى انما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وان كنت لأخشى أن تكون التى لا شوى لها — لا برء معها » — ثم قال للرشيد: يا أمير المؤمنين : أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك ، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتـولاه من

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٢٨٨ •
(٢) الطبرى ج ٨ ص ٢٩٢ •

جنيتم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى ، وآمن على ، فقال الرشيد : ليس بك هذا (١) .

وحكى أن الرشيد قام عن مجلسه يريد الدخول الى بعض حجر قصره ، وقد أسرع جعفر فرفع الستر ، واخذ الرشيد يتامل عنقه تاملا شديدا ، فرآه جعفر وهو يتأمل ، فقال له : ما متأمل أمير المؤمنين ؟ قال: حسن عنقك ، وحسن موقع الجربان منه ، فقال له : لا والله ما تأملت الا موضع سيفك فيه ، فقال له : أعيذك بالله من هذا القول ، وأعتنقه وقبله، ثم قال للفضل بن الربيع : قاتل الله جعفرا ، وذكر له هذا الخبر ، وقال : ما تأملت عنقه الا لموضع السيف منها (٢) .

وروى ابن الأثير أن جعفر كان يصنع للرشيد طعاما بعسفان اذا حج ، فلما صنع له سنة ١٨٦ هـ الطعام ودعاه اليه لم يحضر عنده ، فكان ذلك أول تغير أمرهم (٣) .

من كل ذلك — ومن غيره — يتبين لنا أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر ، وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها الا ما ركز فى نفسه ، وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة ، لذلك أخذ فى تقليص نفوذهم ، والحد من سيطرتهم ، حتى كانت نهايتهم المتوقعة بين آونة وأخرى ، ولم تكن مفاجئة ، وانما الغرابة فيها تنكر الزمن لهم بعدما بلغوه من الجاه والعز والثروة والهيمنة . ومع ذلك لا يغنى حذر من قدر ، واذا حم القضاء ، ذهب الدهاء .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٦

(٣) الكامل فى التاريخ حـ ص ١٧٥ .

شعر النكبة :

ولما كان ما حدث يعتبر جزاء وفاقا لهذه الأسرة النابهة التى لم تحفظ جميلا أسداه اليها الرشيد ، ولم تشكر النعمة التي هيأها الله لها ، فقد كان من ناحية أخرى دافعا لأحاسيس الذين حظوا بأفضالهم ، وتمرغوا فى نعمهم أن تعبر بمراره عن هده النكبه ، وقد ترك لهم الخليفة حرية التعبير ، فلم يحجر عليهم كما يدعى البعض لأن الفكر والاحساس لا دخل لأحد فى تقييدهما ، فهما من خواص الانسان وكان مما قاله الرقاشى الشاعر من قصيدة طويلة :

ان يغدر الزمن الخئون بنا فقد
غدر الزمان بجعفر ومحمد
حتى اذا وضح النهار تكشفت
عن قتل أكرم هالك لم يلحد
والبيض لولا أنها مأمورة
ما فل حد مهند بمهند
يا آل برمك كم لكم من نائل
وندى كعد الرمل غير مصرد
ان الخليفة لا يشك أخوكم
لكنه فى برمك لم يولد
نازعتموه رضاع أكرم حرة
مخلوقة من جوهر وزبرجد
ملك له كانت يد فياضة
أبدا تجود بطارف وبمتلد

كانت يد للجود حتى غلها
قدر فأضحى الجود مغلول اليد(١)

وقال أبو نواس (وقيل للرقاشى) :

ألآن استرحنا واستراحت ركابنا
وأمسك من يجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا قد امنت من السرى
وطى الفيافى فدفد بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر
ولن تظفرى من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلى
وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفا برمكيا مهندا
أصيب بسيف هاشمى مهند(٢)

وقال سيف بن ابراهيم :

هوت انجم الجدوى وشلت يد الندى
وغاضت بحور الجود بعد البرامك
هوت انجم كانت لأبناء برمك
بها يعرف الحادى طريق المسالك (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ .
(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ص ١٧٩ ، د : عبد المقصود نصار : العصر العباسى الأول ص ١٢٨ .
(٣) تاريخ الطبرى حـ ٨ ص ٣٠١ .

وقال أبو العتاهية :

قـولا لمن يرتجى الحيـاة اما
فى جعفـر عبرة ويحيـاة
كانا وزيرى خليفـة الله هـا
رون همـا ما هـا خليـلاه
فـذاكم جعفـر برمتـه
فى حـالق رأسـه ونصـفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد
نحـاه عـن نفسـه وأقصـاه
شـتت بعد التجميع شـملهم
فأصـبحوا فى البلاد قد تاهوا
كذلك من يسـخط الاله بمـا
يرضى به العبد يجـزه الله (١)

وأنشد الرقاشى وقيل العطوى أبو عبد الرحمن :

اما والله لـولا خـوف واش
وعـين للخليـفة لا تنـام
لطفنا حـول جـذعك واستلمنا
كمـا للناس بالحجر اسـتلام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى
حساما قـده السيف الحسام
على الدنيـا وسـاكنها جميعا
ودولة آل برمك السـلام (٢)

---

(١) المرجع السابق ٠

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٧ ص ١٥٨ ، لجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ ٠

ولما قيل ذلك للرشيد أمر به فاحضر ، فقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : تحركت نعمته فى قلبى فلم أصبر ، قال : كم كان عطاؤك ؟ قال : كان يعطينى فى كل سنة ألف دينار ، فأنزله بألفى دينار (١) •

كما حدث مصعب بن عبد الله قال :

لما قتل جعفر بن يحيى وصلب بباب الجسر رأسه ، وفى الجانب الآخر جسده ، وقفت امرأة على حمار فاره ، فنظرت الى رأسه ، وقالت بلسان فصيح ، والله لئن صرت اليوم آية ، لقد كنت فى المكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولما رأيت السيف خالط جعفرا
ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت انما
قصارى الفتى يوما مفارقة الدنيا
وما هى الا دولة بعد دولة
تخول ذا نعمى وتعقب ذا بلوى
اذا نزلت هذا منازل رفعة
من الملك حطت ذا الى الغاية القصوى

ثم انها حركت الحمار الذى كان تحتها ، فكأنما كانت ريحا لم يعرف لها أثر (٢) •

---

(١) الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٨ •
(٢) تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٩ – ١٦٠ •

كما يروى عن سفيان بن عيينه حين بلغه قتل جعفر بن يحيى ، وما نزل بالبرامكة ، انه حــول وجهــه الى الكعبة وقال : اللهم انه كان كفاني مؤونة الدنيا ، فاكفه مؤونة الآخرة (١) .

ولقد قال يحيى بن خالد لما نكب الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلناه أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة (٢) .

مما سبق نرى أن قصارى ما قام به الناس ازاء هذه النكبة انما هو الرثاء ، والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر فقط ، أما ما عدا ذلك فلم يحدث وكأنه وقر فى نفوسهم أن الرشــيد صاحب حق الحيــاة والموت يهبهما لمن يشاء متى شاء ، فاستكانوا وتقبلوا الوضع على علاته بــلا مناقشات أو مجادلات ، أو تذمر منــه ، أو ثورة من أجله ، بخلاف ما ارتبط بالتخلص من أبى مسلم الخراسانى ، اذ شبت بعض الثورات تطلب بدمه ، وهذا يدل على مدى التأثير الذى أحدثه الخليفة والمناوئين للبرامكة فى عقول الناس وأفكارهم ، حتى قبلوا هذه النهاية بدون أدنى اثارات .

الرشيد بعد نكبة البرامكة :

ربما كانت صورة المأساة الدامية التى أصابت هذه الأسرة ، تؤرق الرشيد وتؤلمه ، وربما استيقظ ضميره فأنبه على هــذا الموقف ، حتى قيل انه كان يبكى أحيانا عند ذكرهم ، ويرجع ذلك فى رأى الى شخصيته التى كانت تتأثر بالمواقف ، وتتألم لآلام الناس ، فقد كان رقيق القلب

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٦ ص ١٧٩ .

سريع الدمعة ، يسمع الوعظ فتسيل دموعه تأثرا وخوفا ، وكان من صفاته معاقبة المسئ بعنف ليكون عبرة لغيره ٠

فربما كان البكاء لما أصاب هذه الأسر التى أعطتها الدولة الشىء الكثير ثم لم تحافظ على حقوقها وواجبات خليفتها ، فتآمرت ، وتحايلت ، واستأثرت ٠ ربما كان تألما لما أصاب الشيخ الكبير يحيى ، صاحب المواقف المشهورة ٠

ولذلك روى أنه كان يقول : لعبد الله من أغرانى بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ، ولا رجاء وددت والله أنى شطرت نصف عمرى وملكى وأنى تركتهم على حالهم (١) ٠

ويروى أن علية بنت المهدى سألت الرشيد بعد ايقاعه بالبرامكة : يا سيدى ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفرا ، فلأى شىء قتلته ؟ فقال لها : يا حياتى لو علمت أن قميصى يعلم السبب فى ذلك لمزقته ٠ أقول ، ولا جرم ان هذا بسبب آل البيت ، لأنه يرى أن من السياسة ألا تعرف الأمة الاسلامية ان العلويين الذين هم سلالة النبى صلى الله عليه وسلم المحبوبون فى الأمة أحمرها وأسودها ، الذين تهرع لهم القلوب ، وتسارع اليهم الأفئدة ، أبناء فاطمة الزهراء ٠ فاذا علم المسلمون ان الفتك بجعفر لميله اليهم ، واتحاده معهم لينقل الملك من بنى العباس اليهم لزلزلت الأرض زلزالها ، واضطربت الاحوال ، ويحق للرشيد أن يمزق قميصه اذا علم جليه الخبر: فان ذلك يقيم قيامة الدولة، ويثير المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، وهذا ما لا يريده الرشيد مطلقا ٠

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٠ ص ١٩٢ ٠

أما الحكم على الرشيد فاننا نقول : ان التهـم التى وجهت الى البرامكة كانت كفيلة وكافية لغضبه عليهم، خاصة ما اتصل منها بسلطانه وملكه ، واحساسه بمشاركتهم له فى أمور الدولة ، هذا الاحساس جعله أذنا صاغية وسامعة لكل واش وحاقد ، وكانت الكلمة الواحـدة تطرق أذنه تحمل معنى التدخل تدفعه الى عدم اللامبالاة بانزال العقاب بهم ، بل وتمزيقهم شر ممزق •

ونحن مهما دافعنا عن الرشيد فاننا لا نستطيع الدفاع عنه فيما استخدم من وسـائل رهيبة وشنيعة هزت مشـاعر وعواطف الناس ، لمجافاتها لأخلاقيات الاسلام •

كما نأخذ عليه وبشدة تمهيده الامور لهذه الأسرة ، وتعبيد الطريق أمامهـا ، وفرشه لهم بالحـرير ، بتقويضهم لادارة شـئون الدولة ، واشرافهم دون رقيب على كل مظاهر الحياة فيها •

ورغم ذلك فلم ينس النـاس أفضـالهم وكرمهـم ، فقـد ذكر الجهشيارى أن الفضل بن الربيع حضر بعد نكبتهم جنازة حمـدون بن على ، فذكر البرامكة ، فأطراهم وقرظهم ووصفهم ، ثم قال : كنا نعتب عليهم ، فقد صرنا نتمناهم ، ونبكى عليهم • ثم أنشد متمثلا •

عتبت على سـلم فلما فقـدته
وجربت أقواما بكيت على سلم(١)

وهذا يعطينا تصورا عن أحوال الدولة بعدهم ، فهى لم تسـتقر أمورها ، ولم تستتب أحوالها ، وربما لعـدم كفاءة الفضل بن الربيع

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٦٢ •

لجعفر بن يحيى ، وربما لقيام مسرور الخادم على البريد ، وهو غير مستبعد لذلك ، ربما لخوف الناس من أن يصيبهم ما أصابهم ، المهم ان الأمور اختلطت بعد البرامكة ، لدرجة ان الرشيد خاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم الى حالهم ، للقيام بأعباء الدولة ، التى اختلفت عن ذى قبل •

فيروى الجهشيارى ان الأمور فى الدولة « اختلت ، وقصد الفضل بن الربيع خدمة الرشيد فى حضرته ، وأضاع ما وراء بابه » • و •

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد والأخبار فى أيام الرشيد كانت مهملة ، وان مسرورا الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ، ويخلفه عليه ثابت الخادم قال : فحدثنى ان الرشيد توفى وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض (١) •

ملاحظات :

• ولنا أن نبدى بعض الملاحظات حول هذا الموضوع ومنها :

١ ــ ان الرشيد تكتم السبب الذى نكبهم من أجله ، ولم يصرح به ، وقال قولته الشهيرة : لو علم قميصى هذا لمزقته اربا اربا ، وهذا ما أفسح المجال للتزيد فى هذا الموضوع ، وفسره كل واحد وفق هواه ومذهبه •

٢ ــ أن بعض المصادر تتعصب للبرامكة ، فالأعاجم من الكتاب يتعصبون لهم ، وبعض الكتابات من تأليفهم ــ ويلحق بهم المستشرقون ــ والعرب يتعصبون ضدهم ، وبعض الكتابات من تأليفهم •

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٥ ، ابن خلكان وفيات الاعيان ح ١ ص ١٠٨

٣ ـ لقد صمت الناس عن الحديث عن أسباب نكبة البرامكة مما جعل الشائعات تكثر حول هذا الحادث ، وهذا أمر طبيعى حتى فى أيامنا التى نعيشها ، فالمجال واسع للخيال ، وكل يتكلم بما يهواه ، لهم أو عليهم •

٤ ـ ان كرم البرامكة وجودهم وسخاءهم الذي وصل الى درجة الاسراف فى أحايين كثيرة ، قد أخفى الكثير من مساوئهم ، وكأنهم أرادوا شغل الناس بذلك عن حقيقة نواياهم ، وتخطيطهم •

٥ ـ ان المستعرض من الأحداث هذا العصر ، يدرك ان البرامكة اذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة ، أنهم كانوا بلا شك أعظم حظا ، وأوفر نصيبا فى نعيم الحياة لذا لا نجد من وزراء هذا العهد وكبار رجاله من غفل عنه الزمن مدة كالتى قضاها البرامكة على رأس الدولة ، وامتد لهم الجاه دون تغير طيلة ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، فهم قد ظهروا مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنيها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ، ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧ هـ • اما من سبقهم كأبى مسلم الخراسانى فقد نكب ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ، والفضل ابن سهل غدر به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل وهكذا •

٦ ـ ان قسوة التخلص منهم ، وفظاعة ما ارتكبه الرشيد معهم ، ورفضه لقبول شفاعتهم ، أو مناقشتهم ، حملت الكثير من الناس على العطف عليهم ، والاحساس بمشاعرهم الذى انعكس فقط على الرثاء ، كما كان دافعا الى الزهد سواء عن اقتناع أو غيره لذلك نجد للعتابى هذه الأبيات :

أسرك أني نلت ما نال جعفـــر
من المال وما نال يحيى بن خالد
وان أمــــير المؤمنين أغصنى
مغصهما بالباترات البـــوادر
دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة
ولم أتجسم هـــول تلك الموارد
فان رفيفات الأمـــور مشــوبة
بمستودعات فى بطون الاساود (١)

٧ ـ اننا لا نسأل لم أوقع الرشـــيد بالبرامكة فهذا قد وضـــح كما رأينا ، ولكننا نســـأل أنفسنا : كيف أفلت البرامكة من الســـفاح ؟ ونجحوا من سيف المنصور ؟ •

ولم لم يرم أحد منهم بالزندقة فى عهد المهدى كما رموا بها بعد ؟ ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاما ، مع ما عرف عنـــه من سرعة التأثر والانفعال والتغير ؟ •

٨ ـ ان ما وقع بالبرامكة أمر سهل ويسير اذا قيس بما سبقته من أحداث مشابهة ، فلم يقتل ســوى جعفـــر بن يحيى ، وحبس غالبهم ، وأطلق سراح البعض منهم ، وعهدنا بمثل هذه الأحداث أن يقتل مع الرجل أهله وذويه ، كما حـــدث لأسرة الموريانى مثلا ، مما يجعـــل ما حدث للبرامكة أمر هين • وأن الذى أعطى هـــذا الحادث شـــهرته الكبيرة ، انما هى شهرة الرشيد ذاته ، التى سارت بها الركبان فأخذت معها هذه الفعلة ، وتزويد فيها من منطقة لأخرى ، ولولا شهرة الخليفة

(١) الجهشيارى : الوزراء الكتاب ص ٢٦٢ •

هارون الرشيد ، وذائع صيته ، وعظيم مكانته فى عصره وغير عصره لظلت نكبة البرامكة أمرا عاديا ، وحدثا محدود الانتشار ، ولكنها حظوظ حتى فى الموت .

٩ ـ لقد كان من الأمور الغريبة أن أحدا من المعاصرين لهذه الأحداث لم يقف مع رأى الخليفة ، وفى نفس الوقت لم يعترض أحد كذلك على هذا التصرف ، وكأنه صاحب حق الحياة والموت لهذه الاسرة ولغيرها ، فاذا ما حكم بالموت على أحد فليس على الناس بعد ذلك الا التعبير عن الرأى بمستلزماته ، فلم يكن معمولا به عادة مع الحكام الاقوياء خوفا من نفوذهم وسطوتهم وبطشهم .

١٠ ـ لقد عفى الدهر على هذه الإسرة ولكننا نذكر لها الاثر الكبير الذى خلفته فى تقدم الحضارة ، فى العلوم والآداب ، فى الزراعة والصناعة ، فى التجارة وغيرها ، فقد بلغت الادارة والنظام ذروة النجاح فى عهدهم ، لا ننكر ذلك عليهم ، وقد تأثرت هذه النهضة ولفترة محدودة بعد القضاء عليهم ، ثم عاودت سيرتها الأولى ، .

وهكذا نرى ان الفرس ممثلين فى البرامكة ، أرادوا اعادة النفوذ السياسى للفرس ، ولم يوفقوا فى ذلك فلقد كان بطش الرشيد بهم أسبق من تحقيق حلمهم ، وان عاد الأمل مرات يراود خيال الفرس .

نرجو أن نكون قد وفينا هذا الموضوع حقه من الدراسة المتأنية ، للوصول الى الحقيقة قدر الامكان .

والحمد لله رب العالمين .

دكتور

عبد الرازق الطنطاوى القرموط

أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية (أسيوط)